الباب الأول

محاور لفهم القرآن

الإله – الرب – العبادة - الدين

قال الأمير : إن هذه الكلمات الأربعة كانت واضحة المعانى محددة المفهوم لدى الناس في الجزيرة وقت نزول القرآن حتى أن جميعهم كان يعلم معناها ويفهم مقصودها ، ومن قبلها منهم إنما فعل ذلك عن علم بما تحمله من معانى وبما تؤدى إليه من تكاليف ، وبما يتطلبه هذا القبول من التزامات ، كذلك من رفضها فقد رفضها عن علم وفهم وإدراك لمعانيها ومراميها ، لأنهم جميعا كانوا عربا يعرفون لغة الضاد بل يتقنون معرفتها .

ثم مع تطاول الأيام وتغير الأحداث أصبحت معانى هذه الكلمات غير واضحة عند الكثير من المسلمين ، فتراهم يرددونها ولايفهمون معانيها ويتمسكون بها ولا يدركون مراميها ، يقولون لا إله إلا الله ، وهم منغمسون في نواقضها ، إنهم بحاجة إلى تجديد شهادة أن لا إله إلا الله ، لا لأنهم لايقولونها ولكن لأنهم لايفهمونها ، ولا يدركون معناها ، برغم ترديدهم لها ليل نهار ، وبالتالى فما أكثر من يأتون بنواقضها ويخرجون منها .

يجب ألا نكتفى من الناس في هذه الأيام بأن ينطقوا بلا إله إلا الله ، بل لابد من اختبارهم حتى نقف على حقيقة مايقصدون بها ، وبعد الوقوف على صحة معتقدهم يمكننا عندها أن نشهد لهم بالإسلام ونقول حقا أنهم مسلمون ، أما قبل أن نتأكد من صحة معتقدهم فلا وألف لا .

إننا لابد أن نبين للناس معانى هذه المصطلحات ماذا تعنى كلمة إله ؟ ماهو المقصود بكلمة رب ؟ ما معنى لفظة الدين ؟ وماهو المفهوم الصحيح للعبادة ؟

يقول المودودى وهو أمير الجماعة الإسلامية في باكستان حول هذا المعنى :

« الإله والرب والدين والعبادة : هذه الكلمات الأربع أساس المصطلح القرآني وقوامه، والقطب الذي تدور حوله دعوة القرآن فجماع ما يدعو إليه القرآن الكريم هو أن الله تعالى هو الإله الواحد الأحد والرب الفرد الصمد،

لا إله إلا هو، ولا رب سواه، ولا يشاركه في إلوهيته ولا في ربوبيته أحد.

فيجب على الإنسان أن يرضى به إلهًا وأن يتخذه دون سواه ربًا، ويكفر بإلوهية غيره ويجحد ربوبية من سواه، وأن يعبده وحده ، ولا يعبد أحدًا غيره ، ويخلص دينه لله تعالى ، ويرفض كل دين غير دينه سبحا نه، كما ورد في التنزيل : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]، ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٩٢] ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [الأنعام:١٦٤]، ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ [الكهف :١١٠] ، ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل ٣٦] ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴾ [آل عمران :٨٣] ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر :١١] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۗ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾ [آل عمران :٥١].

هذه الآي المعدودة إنما سردناها مثالا وأنموذجًا، وإلا فمن قرأ القرآن وتتبع آياته، فإنه يحس لأول وهلة أن كل ما نزل به القرآن الكريم من الهدي والإرشاد لا يدور إلا حول هذه المصطلحات الأربعة، وليس موضوع الكتاب – القرآن – وفكرته الأساسية إلا: أن الله هو الرب والإله. وأنه لا رب ولا إله إلا هو. فإياه ينبغي أن يعبد الإنسان. وله وحده ينبغي أن يخلص الدين.».

ثم يقول المودودى موضحا أهمية هذه المصطلحات الأربعة :

« ومن الظاهر البين أنه لابد لمن أراد أن يدرس القرآن ويسبر غور معانيه ، أن يتفهم المعاني الصحيحة لكل من هذه الكلمات الأربع ويتلقى مفهومها الكامل الشامل ، فإذا كان الإنسان لا يعرف ما الإله، وما معنى الرب، وما

العبادة، وما تطلق عليه كلمة الدين ، فلا جرم أن القرآن كله سيعود في نظره كلامًا مهملا لا يفهم من معانيه شي ء ، فلا يقدر أن يعرف حقيقة التوحيد، أو يتفطن إلى ماهية الشرك ، ولا يستطيع أن يخص عبادته بالله سبحانه ، أويخلص دينه له .وكذلك إ ذا كان مفهوم تلك المصطلحات غامضًا متشابهًا في ذهن الرجل ، وكانت معرفته بمعانيها ناقصة فلا شك أنه يلتبس عليه كل ما جاء به القرآن من الهدى والإرشاد، وتبقى عقيدته وأعماله كلها ناقصة مع كونه مؤمنًا بالقرآن .فإنه لن ينفك يلهج بكلمة لا إله إلا الله ويتخذ مع ذلك آلهة متعددة من دون ا لله ، ولن يبرح يعلن أنه لا رب إلا الله ثم يكون مطيعًا لأرباب من دون الله في واقع الأمر ، إنه يجهر بكل صدق وإخلاص بأنه لا يعبد إلا الله تعالى ولا يخضع إلا له، ولكنه مع ذلك يكون عاكفًا على عبادة آلهة كثيرة من دون الله، وكذلك يصرح بكل شدة وقوة أنه في حظيرة دين الله وكنفه ، وإن قام أحد يعزوه إلى دين آخر غير الإسلام هجم عليه وناصبه الحرب؛ ولكنه يبقى مع ذلك متعلقًا بأذيال متعددة، ولا شك أنه لا يدعو أحدًا غير الله تعالى ولا يسميه بالإله أو الرب بلسانه، لكن تكون له آلهة كثيرة وأرباب متعددة من حيث المعا ني التي وضعت لها هاتان الكلمتان، والمسكين لا يشعر أصلا أنه قد أشرك بالله آلهة وأربابًا أخرى، وإن نبهته إلى أنه عابد لغير الله ومقترفٌ للشرك في الدين، لانقض عليك يخمش وجهك، إلا أنه يكون عابدًا لغير الله حقًا، وداخلا ً في غير دينه بدون ريب من حيث مغزى (العبادة و الدين) ، وهو لا يدري مع كل ذلك أن الأعمال التي يرتكبها هي في حقيقة الأمر عبادة لغير الله ، وأن الحالة التي قد سقط فيها هي نفس الأمر دين ما أنزل الله به من سلطان» .

ويوضح المودودى السبب الحقيقي لهذا الفهم الخاطئ فيقول :

« يدلنا النظر في عصر الجاهلية وما تبعه من عصور الإسلام أنه لما أنزل

القرآن في العرب وعرض على الناطقين بالضاد كان حينئذ يعرف كل امرئٍ منهم ما معنى الإله ، وما المراد بالرب ، لأن كلمتي (الإله و الرب) كانتا مستعملتين في كلامهم منذ قبل ، وكانوا يحيطون علمًا بجميع المعاني التي تطلقان عليها، ومن ثم إذا قيل لهم :لا اله إلا الله ولا رب سواه ولا شريك له في ألوهيته وربوبيته ، أدركوا ما تدعوا إليه تمامًا، وتبين لهم من غير ما لبس ولا إبهام أي شيء هو الذي قد نفاه القائل ، ومنع غير الله أن يوصف به ؛ وأي شيء قد خصه وأخلصه لله تعالى، فالذين كفروا إنما كفروا عن بينة ومعرفة بكل ما يبطله وينعي عليه كفره بإلوهية غير الله وربوبيته، وكذلك من آمن فقد آمن عن بينة وبصيرة بكل ما يوجب قبول تلك العقيدة من الأخذ به أو الانسلاخ عنه ، وكذلك كانت كلمتا (العبادة و الدين) شائعتين في لغتهم وكانوا يعلمون ما البعد، وما الحال التي بعبر عنها بالعبودية ، وما هو المنهاج العملي الذي يطلق عليه اسم العبادة ، وما مغزى الدين ، وما هي المعاني التي تشتمل عليها هذه الكلمة؟ ومن ثم لما قيل لهم : ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ وادخلوا في دين الله منقطعين عن الأديان كلها ، ما أخطأوا في فهم هذه الدعوة التي جاء بها القرآن ، وما إن قرعت كلماتها أسماعهم حتى تبينوا أي نوع من التغيير في نظام حياتهم جاءت تطالبهم به تلك الدعوة الصحيحة لجميع تلك الكلمات، تلك المعاني التي كانت شائعة بين القوم عصر نزول القرآن، ولكنه في القرون التي تلت ذلك العصر الزاهر جعلت تتبدل المعاني الأصليةحتى أخذت تضيق كل كلمة من تلكم الكلمات الأربع – الإله والرب والدين والعبادة – عما كانت تتسع له وتحيط به من قبل، وعادت منحصرة في معان ضيقة محدودة؛ بمدلولات غامضة مبهمة .وذلك لسببين اثنين:

الأول : قلة الذوق العربي السليم ونضوب معين العربية الخالصة في العصور المتأخرة،

والثاني : أن الذين ولدوا في المجتمع الإسلامي ونشؤوا فيه، لم يكن قد بقي لهم من معاني كلمات الإله (و) الرب (و) العبادة (و) الدين ما كان شائعًا في المجتمع الجاهلي وقت نزول القرآن . ولأجل هذين السببين أصبح اللغويون والمفسرون في العصور المتأخرة يشرحون أكثر كلمات القرآن في معاجم اللغة وكتب التفسير بالمعاني التي فهمها المتأخرون من المسلمين بدلا من معانيها اللغوية الأصلية .ودونك من ذلك أمثلة: -

إن كلمة الإله جعلوها كأنها مترادفة مع كلمة الأصنام والأوثان . وكلمة الرب جعلوها مترادفة مع الذي يربي وينشئ ، وللذات القائمة بأمر تربية الخلق وتنشئتهم ، وكلمة العبادة حددوها في معاني التأله والتنسك والخضوع والصلاة بين يدي الله .، وكلمة الدين جعلوها نظيرًا لكلمة النحلة ، وكلمة الطاغوت فسروها بالصنم أو الشيطان.

فكانت النتيجة أن تعذر على الناس أن يدركوا حتى الغرض الحقيقي والمقصد الجوهري من دعوة القرآن فإذا دعاهم القرآن ألا يتخذوا من دون الله إلهًا ، ظنوا أنهم وّفوا مطالبة القرآن حقها لما تركوا الأصنام واعتزلوا الأوثان؛ والحال أنهم لا يزالون متشبثين بكل ما يسعه ويحيط به مفهوم الإله ما عدا الأوثان والأصنام، وهم لا يشعرون أنهم بعملهم ذلك قد اتخذوا غير الله إلهاً ، وإذا ناداهم القرآن أن الله تعالى هو الرب فلا تتخذوا من دونه ربًا، قالوا ها نحن أولاء لا نعتقد أحدًا من دون الله مربيًا لنا ومتعهدًا لأمرنا، وبذلك قد كملت عقيدتنا في باب التوحيد، والواقع أنه قد أذعن أكثرهم لربوبية غير الله من حيث المعاني الأخرى التي تطلق عليها كلمة الرب غير هذا المعنى– المربي - ، وإذا خاطبهم القرآن أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، قالوا : لا نعبد الأوثان، ونبغض الشيطان ونلعنه ولا نخشع إلا لله، فقد امتثلنا هذا الأمر القرآني أيضًا

امتثالاً ، والحال أنهم لا يزالون متمسكين بأذيال الطواغيت الأخرى غير الأصنام المنحوتة من الأحجار، وقد خصوا سائر ضروب العبادة – اللهم إلا التأله -لغير الله، وقل مثل ذلك في (الدين) فإنه لا يفهم الناس من معنى إخلاص الدين لله تعالى غير أن ينتحل المرء ما يسمونه الديانة الإسلامية ، وألا يبقى في ملة الهناد ك أو اليهود أو النصارى ، ومن هنا يزعم كل من هو معدود من أهل الديانة الإسلامية أنه قد أخلص دينه لله، والحق أن أغلبيتهم ممن لم يخلصوا دينهم لله تعالى من حيث المعاني الواسعة التي تشتمل عليها كلمة الدين ».

أما عن نتائج هذا الفهم الخاطئ لتلك المصطلحات فيقول المودودى وغيره :

« من الحق الذي لا مراء فيه أنه قد خفي على الناس معظم تعاليم القرآن، بل قد غابت عنهم روحه السامية وفكرته المركزية لمجرد ما غشي هذه المصطلحات الأربعة الأساسية من حجب الجهل ، وذلك من أكبر الأسباب التي قد تطرق لأجلها الوهن والضعف إلى عقائدهم وأعمالهم على رغم قبولهم دين الإسلام وكونهم في عداد المسلمين ، ومن أجل ذلك كله يجدر بنا أن نفصل معاني تلك المصطلحات الأربعة ونشرحها شرحًا كاملاً ، ليتبين غرض القرآن الحقيقي وتعاليمه الأساسية....». المودودى – المصطلحات الأربعة .

هكذا تكلم الرجل موضحا أن معانى هذه الكلمات قد غابت عن الأمة هذه الأيام ، وأن عرب الجاهلية كانوا أعرف بمعانيها من مسلمة اليوم ، وأن معانى ومحاور القرآن الأساسية قد غابت عن الناس بسبب جهلهم بمفهوم تلك المصطلحات ، التى يجب بيان وتجلية معانيها الكاملة الصحيحة.

لقد أكثر القطبان « سيد ومحمد » الكلام حول نفس المعنى فيقول سيد : «....فقد كانوا يعرفون من لغتهم معنى كلمة اله ،ومعنى لا إله إلا الله ،..... ولم يكن يغيب عن العرب – وهم يعرفون لغتهم جيدا المدلول الحقيقى لدعوة لا إله

إلا الله ،- ماذا تعنى هذه الدعوة بالنسبة لأوضاعهم ورياساتهم وسلطانهم ، ومن ثم استقبلوا هذه الدعوة – أو هذه الثورة – ذلك الاستقبال العنيف وحاربوها هذه الحرب التى يعرفها الخاص والعام » . معالم في الطريق .

... ويقول الأستاذ محمد قطب في كتابه التربية الإسلامية ج ٢ ما نصه : « لقد كان الجهد الذى بذله الرسول ﷺ مع المشركين في مكة يؤيده الوحى – منصبا كله على إقناعهم بأنه لا إله إلا الله ، ولكنه لم يبذل جهدا على الإطلاق في إقناعهم بعد أن آمنوا بتحكيم شريعة الله ، ولا بأن تحكيم شريعة الله هو مقتضى الإيمان بلا إله إلا الله ، لأن هذه كما قلنا كانت بديهية في حسهم لاتحتاج إلى بيان ، وكذلك لم يبذل جهدا في إقناع المنافقين بأن التحاكم إلى شريعة الله هو مقتضى لا إله إلا الله ، إنما كان يبتدأهم ليكشفهم ....أما هذه الأجيال القائمة التى تربت في ظل المخطط الصليبى الصهيونى لمحاربة الإسلام فهى في حاجة إلى جهد ضخم لاستيعاب هذه الحقيقة التى لم يكن المسلمون بحاجة فيها لكلمة واحدة خلال القرون ،...» ويقول أيضا : « لقد عملت ظروف كثيرة في القرنين الأخيرين خاصة ... على تجهيل المسلمين بحقيقة لا إله إلا الله ، وفصلها كاملا عن قضية الحكم بما أنزل الله ، لأن المخططين كانوا يعتزمون قتل الإسلام بتنحيته تدريجيا عن حكم الحياة الواقعية للناس ....، والحادث الآن في الأجيال القائمة هو هذه الجهالة بالمعنى الحقيقى للا إله إلا الله » . هكذا يؤكد محمد قطب ما أكده المودودى ، وما أكده أخوه سيد من أن العرب عند نزول القرآن فيهم : كانوا يعلمون جيدا معنى لا إله إلا الله ، بل ويدركون مقتضياتها ، حتى حدث التجهيل والانحراف الذى هو جاهلية أشد من الجاهلية الأولى ، تلك الحالة التى يحياها المسلمون اليوم من الجهل بلا إله إلا الله . وبناءا على هذا يقسم محمد قطب في واقعنا المعاصر الناس إلى ثلاثة أقسام فيقول « أنه لايمكن في الحقيقة إصدار حكم واحد يشمل المجتمع كله فالناس في هذا المجتمع فئات كثيرة ، منهم كما قلنا كافرون بلا شبهة

.....ومنهم مسلمون بلا شبهة .....ومنهم كتلة كبيرة غير متميزة السمات لاتتخذ موقفا حاسما لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ....» .

هكذا أجمل الأمير حديثه عن هذه المصطلحات الأربعة كيف كانت واضحة ، ماذا أصابها من تحريف وتجهيل في أذهان وعقول وقلوب الأمة على الرغم من أنها هى المدخل لفهم دعوة القرآن ، وهى المحور الذى تدور حوله رسالته ، والقطب الذى تقوم عليه دعوة الإسلام ، ثم أراد أن يشرح معانى هذه المصطلحات كلا على حدة ، لكن :

استأذن الشيخ الأمير في الحديث قبل أن يشرع في الشرح فقال :

أولا : لقد أحسنت عرض فكرتك ، وأبدعت في سرد دعوتك ، مستشهدا لها بكلام الكتاب ونصوص الدعاة ، لكن كما علمنا وتعلمنا أن ليس قولا معصوما الا نصوص الوحيين ، وليس رأيا حاز الهداية بيقين سوى إجماع المؤمنين ، ولذلك يقول القرآن الكريم ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ .، ويقول الرسول ﷺ في الحديث الوارد بالصحيحين « لن تجتمع أمتى إلا على هدى » ، ويقول القرآن مزكيا حال جماعة الصحابة ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾ ، ويقول داعيا الناس للاقتداء بهم ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْ ﴾ [البقرة] – ، وقال سبحانه : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [النساء] ، – فلابد من الرجوع إلى نصوص الوحى المعصومة ، والوقوف على تفسيراتها وتطبيقاتها من حال الأمة في زمانها الأول ، زمن رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ، ومن تبعهم بإحسان ، وبذلك تتجلى المعانى وتنضبط المفاهيم ، وتتحرر لدينا المصطلحات .

ثانيا : أما قولك : « يدلنا النظر في عصر الجاهلية وما تبعه من عصور الإسلام

أنه لما أنزل القرآن في العرب وعرض على الناطقين بالضاد كان حينئذ يعرف كل امرئٍ منهم ما معنى الإله، وما المراد با الرب ، لأن كلمتي - الإله (و) الرب - كانتا مستعملتين في كلامهم منذ قبل، وكانوا يحيطون علمًا بجميع المعاني التي تطلقان عليها .ومن ثم إذا قيل لهم : لا إله إلا الله ولا رب سواه ولا شريك له في ألوهيته وربوبيته، أدركوا ما تدعوا إليه تمامًا وتبين لهم من غير مالبس ولا إبهام أي شيء هو الذي قد نفاه القائل ومنع غير الله أن يوصف به؛ وأي شيء قد خصه وأخلصه لله تعالى، فالذين كفروا إنما كفروا عن بينة ومعرفة بكل ما يبطله وينعي عليه كفره بإلوهية غير الله وربوبيته، وكذلك من آمن فقد آمن عن بينة وبصيرة بكل ما يوجب قبول تلك العقيدة الأخذ به أو الانسلاخ عنه. وكذلك كانت كلمتا العبادة (و) الدين شائعتين في لغتهم وكانوا يعلمون ما البعد، وما الحال التي بعبر عنها بالعبودية، وما هو المنهاج العملي الذي يطلق عليه اسم العبادة وما مغزى الدين وما هي المعاني التي تشتمل عليها هذه الكلمة؟ ومن ثم لما قيل لهم ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ وادخلوا في دين الله منقطعين عن الأديان كلها ما أخطأوا في فهم هذه الدعوة التي جاء بها القرآن .وما إن قرعت كلماتها أسماعهم حتى تبينوا أي نوع من التغييرفي نظام حياتهم جاءت تطالبهم به تلك الدعوة؟ » ، فهذا مالا نسلم لك به ولنا عليه عدة ملاحظات نذكرها على النحو التالى :

الملاحظة الأولى : هذا الكلام غير صحيح فى ذاته وذلك لعدة أمور :

١ - إن القائلين بهذا الافتراض لم يدللوا على صحته بنص ثابت لا من القرآن ولا من السنة ، ولانقلوا عليه إجماعا بل ولا رأى فقيه أو خبير بتلك المسائل ، إنما هو مجرد افتراض فرضوه يحتاج لإثباته الحجة والدليل ، وهذا مالم يقدمه أصحاب هذا القول ، والقرآن الكريم يقول: ﴿هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ

صَٰدِقِينَ ﴾.

٢- إن الذين كانوا بالحجاز والجزيرة فى هذا الوقت لم يكونوا جميعهم من العرب الخلص ، بل كان منهم مستعربين وأرقاء ومستجلبين من نواحى شتى ، كان فيهم الروم والفرس والحبش ، وبلاشك فهم جميعا لم يكونوا يتقنون لغة العرب ، وقد توجه الرسول الكريم بدعوته إليهم جميعا ، بل لقد بين القرآن أنهم كانوا يلحنون ويلحدون فى ألفاظ القرآن والعربية ، قال تعالى : ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ ، وقالوا ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾، وكلنا يعرف بلالا وصهيبا وسلمان وغيرهم من غير العرب الذين تواجدوا بالجزيرة وقت نزول الوحى وبدء الرسالة ..

٣- من المؤكد الذى لامرية فيه أن العرب الخلص أنفسهم لم يكونوا على درجة واحدة من الفصاحة والبلاغة والفهم لمعانى ومصطلحات العربية ، فضلا عن فهمهم معانى ومصطلحات القر آن ، بل كان فيهم السفيه والأبله والأغتر ، ومن لاعلم له بشىء ولا دراية ، فكيف نقول بأن كل واحد منهم كان يعرف ويفهم لغة الضاد ومعانى ومقاصد القرآن ؟ هذا تمحل يناقض العقل فضلا عن مخالفته الواقع كما نرى

٤- قولك « كل أحد منهم كان يعرف أو يفهم معانى ومقاصد القرآن» ، من أين لك بهذا الحصر الذى عبرت عنه بكلمة كل ؟ فمن الذى قام بحصرهم وإحصائهم ، ووقف على حقيقة كل فرد منهم ليجزم بهذا الجزم ؟ وهل هذا الذى أحصاهم ووقف على حقيقة معرفتهم وفهمهم كان هو نفسه محيطا بمعانى العربية، ومدركا لكافة ألفاظ ومقاصد القرآن حتى يعطيهم شهادة خبرة بهذا الفهم وتلك المعرفة ؟ أم أنه شهد لهم بحسب علمه وعلى قدر معرفته ، فيظل قوله هذا مجرد ظن وتخمين ؟

٥- إن الشيوع مهما بلغ واشتد معناه لايصل أبدا إلى درجة القطع بأن كل واحد منهم كان محيطا وعارفا بمعانى اللغة وبمقاصد القرآن ومصطلحاته ، وإنما هذه الأحكام تبنى على الأعم الأغلب ، وليست تعنى تمام الحصر وشموله حتى يقال فيها « كل واحد كان يعلم ».

٦- لقد ثبت من خلال واقع الصحابة ، وفى حضرة النبى ﷺ مايخالف هذا الذى تقوله ، حيث جهل العديد من العرب بل من الصحابة بعض المعانى العربية والمصطلحات القرآنية ، وتصرفوا على خلاف مقاصد القرآن ومفهوم الدين الصحيح، بل ومفهوم اللغة التى تزعم أنهم جميعا كانوا خبيرين بها . فهذا عدى بن حاتم - وهو من هو- يجهل معنى العبادة حتى يبينها له رسول الله ﷺ ، ففى الحديث الحسن عند الترمذى أنه دخل على النبى ﷺ وفى عنقه صليب ، والرسول ﷺ يقرأ قوله تعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾- التوبة - فانتفض عدى ، وقال :

يارسول الله : ما عبدناهم ، فقال له النبى ﷺ : « ألم يحلوا لكم الحرام فتستحلونه ، ويحرموا عليكم الحلال فتحرمونه ؟» قال بلى ، قال ﷺ « فتلك عبادتهم »، فهذا عدى وكان من أشهر وأشرف العرب جهل معنى العبادة والربوبية، ولقد اورد ابن كثير والقرطبى وابن حزم ، و الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى كتاب التوحيد، و الشاطبى فى كتابه الاعتصام عن أبى واقد الليثى ط قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى سفر قِبَلَ خيبر ونحن حديثو عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون حولها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها ذات أنواط ، فقلنا يارسول الله : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال ﷺ : الله أكبر، كما قالت بنو إسرائيل ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ ﴾، لتركبن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لودخلوا فى جحر ضب لاتبعتموهم ، قلنا

يارسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال فمن ؟ .- فهؤلاء جمع من الصحابة وبمحضر من النبى ﷺ جهلوا معنى قولهم : « اجعل لنا ذات أنواط » ، كما جهلوا سنن من كان قبلهم حتى سألوا عنها قائلين : « اليهود والنصارى » ؟ فكيف يقال بأن كل واحد منهم كان يعرف معانى العربية ومصطلحات القرآن ؟ وقد روى ابن الأنبارى عن ابن عباس ط قال : « ماكنت أدرى مافاطر السموات والأرض ، حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر، فقال احدهما : انا فطرتها ، أنا ابتدأتها » . هل يخفى مثل هذا المعنى على ابن عباس ثم يقال « لقد كان كل واحد منهم يعلم ويفهم اللغة والقرآن ؟ ، روى البخاري في صحيحه (٤٤٩٥) بإسناده إلى هشام بن عروة، عن أبيه أَنَّه قال: ((قلت لعائشة زوج النَّبيِّ ﷺ وأنا يومئذ حديث السنِّ: أرأيتِ قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾، فما أرى على أحد شيئاً أن لا يطوَّف بهما، فقالت عائشة: كلاَّ! لو كانت كما تقول كانت: فلا جناح عليه أن لا يطوَّف بهما، إنَّما أنزلت هذه الآية في الأنصار، كانوا يُهلُّون لِمناة، وكانت مناة حذو قديد، وكانوا يتحرَّجون أن يطوَّفوا بين الصفا والمروة، فلمَّا جاء الإسلام سألوا رسول الله عن ذلك، فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾.

وعروة بن الزبير من خيار التابعين، وهو أحدُ الفقهاء السبعة بالمدينة في عصر التابعين، قد مهَّد لعُذره في خطئه في الفهم بكونه في ذلك الوقت الذي سأل فيه حديثَ السنِّ، وهو واضحٌ في أنَّ حداثةَ السنِّ مظنَّةُ سوء الفهم .

نكتفى بهذا الذى ذكرنا، ولو ذهبنا نستقصى الحالات والمواقف التى جهل فيها الكثير من العرب ، والعديد من الصحابة بعضا من معانى اللغة العربية ، والعديد من مصطلحات القرآن لعجزنا عن حصرها، ويكفى أى منصف الرجوع إلى كتب التفسير والفقه ومعاجم اللغة ليقف على حقيقة ماذكرنا والحمد لله .

الملاحظة الثانية : هذا الذى ذكرت من كون الجميع كانوا عالمين وعارفين لو صح هذا الافتراض، وهو لايصح يقينا لما كان فيه حجة للقائلين به ، وتوضيح المسألة على هذا النحو :

أولا : هذه الفهوم التى كانت سائدة عند العرب وقت نزول القرآن ، وتلقوا مصطلحاته على أساسها من اين استقوها ؟ ومن أين تعلموها ؟ أليسوا قد استقوها وتعلموها من المجتمع الجاهلى ؟ الذى جاء الإسلام – على حد قولكم – ليعلن عليه الانقلاب والثورة فى معتقداته ، ومفاهيمه ، وتصوراته، وأخلاقه، وكل شئون حياته ، فكيف نجعل هذه المفاهيم ، حكما علينا فى محاولاتنا لفهم معانى ومقاصد القرآن، دون الالتفات إلى مايعنيه المصطلح الشرعى ؟ ، كيف نقف عندها فلا يزاد عليها ولاينقص منها ؟ وكيف لانلتفت للاعتبارات القرآنية وكيف نحاكم القرآن إليها وهو أصل العربية وصحيحها وضابطها ؟.كيف نهمل المعانى الشرعية ، ونقدم عليها المعانى اللغوية التى تعارف عليها القوم الذين لايبعد عليهم الخطأ والغفلة ؟

ثانيا : هل جاء القرآن موافقا ومقرا لكل مفاهيم الجاهلية ؟ أم أنه جاء بمفهوم محدد ومقصد متميز سواءا وافق فى ذلك مفاهيم العرب قبله أم خالفها ؟ إن قلتم جاء الإسلام موافقا لكل مفاهيم وأعراف الجاهلية سألناكم فلماذا جاء مادام سيقر كل ماعندهم ؟، فضلا أنكم بجوابكم هذا قد خالفتم مذهبكم الداعى إلى الثورة على كل شىء جاهلى ، وقررتم بأن هذا هو الإسلام ، ومما لاشك فيه أن القرآن جاء بمفهوم متميز مستقل ، وتعامل مع مفاهيم وأعراف العرب بطرق عديدة ، لقد وجد القرآن لدى العرب وقت نزوله مفاهيم وقيما صحيحة فأقرها ونماها ، وصادف مفاهيم وأعرافا ناقصة فكملها وجلاها ، وواجه مفاهيم ضالة وخاطئة فحاربها وألغاها ، وكانت هناك مفاهيم بها شىء من الانحراف فقومها

وهداها ، ونزل القرآن يقول : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء] .

لقد نزل القرآن ومفهوم الزواج عند العرب قد شابه وداخله الكثير من الانحراف ، وكانت صور متنوعة تحدد علاقة الرجل بالمرأة ، فألغى كل تلك الصور، وأبقى صورة واحدة ، هى نكاح الناس اليوم من المهر والصداق والبناء بعد ذلك .

كما نزل القرآن والخمر من مفاخر ومآثر العرب ، وكانوا ينشدون فيها الأشعار ، فأعلن الحرب على هذا المفهوم، وألغاه تماما بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة]، ونزل القرآن ونصرة العصبية مفهوم شائع وعرف ذائع يتنادون به « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » ، فقومه الإسلام ، ووضح الرسول ﷺ كيف ننصره ظالما بقوله : « أن تأخذ على يديه فتمنعه عن ظلمه فذاك نصرك له ».

وجاء القرآن ومفهوم الصلاة عند العرب يعنى الصلة والدعاء ، فخصه فى الشرع بأعمال مخصوصة بنية مخصوصة ، هى صلاة المسلمين اليوم ، فمن أقام العلاقات مع الآخرين وتواصل معهم ، لانقول فى الإسلام أنه قد صلى ، ومن دعا وسأل لانقول بأنه صلى بالمعنى المقصود فى الشرع .إنما الصلاة فى الإسلام أعمال وأقوال مخصوصة بنية مخصوصة .

لقد نزل القرآن والعرب يعظمون البيت ، ويحجون إليه، لكنهم يطوفون به عراة، يجتمع فى الموسم المشركون والأحناف ، ويشهده كذلك المسلمون الجدد، فألغى حج المشركين ، ومنع طواف العراة ، وأبقى على الحج شعيرة للمسلمين الموحدين ، وقال ﷺ خذوا عنى مناسككم » ..

هكذا جاء الإسلام وتعامل مع مفاهيم وأعراف وعادات الجاهلية ، فعلى أى أساس تقولون : بأن العرب حال نزول القرآن كانوا يفهمون ويدركون مقاصد

ومعانى التنزيل ، أو أنهم كانوا أقوم قيلا منا ؟.

نخلص مما سبق بحقيقتين الأولى : أن العرب لم يكونوا كلهم عارفين بمقاصد ومصطلحات القرآن، فضلا عن كون كل واحد منهم كان عارفا بهذه المصطلحات، ومحيطا بتلك اللغة .

الثانية : هذه المصطلحات أو اللغة التى كانوا يفهمونها ليست بذاتها صالحة لتكون حجة على تفسير وفهم القرآن إلا ما وافق عليه القرآن وأقره ، أو سكت عنه حيث لا يتعارض معه ، أما ما رفضه القرآن أو عدل فيه أو صححه فليس حجة فى فهم مصطلحات هذا الدين ولا الوقوف على مقاصده ،لأن القرآن لم يعتبره ، بل ربما جاء بخلافه فكيف نعتبره نحن ؟ ، والرسول ﷺ يقول : « ألا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع » ..

ثم قال الشيخ : أما الملاحظة الثالثة فتدور حول قولك أيها الأمير : « ولكنه في القرون التي تلت ذلك العصر الزاهر جعلت تتبدل المعاني الأصلية حتى أخذت تضيق كل كلمة من تلكم الكلمات الأربع عما كانت تتسع له وتحيط به من قبل، وعادت منحصرة في معان ضيقة محدودة ؛ بمدلولات غامضة مبهمة . وذلك لسببين اثنين:

الأول : قلة الذوق العربي السليم ونضوب معين العربية الخالصة في العصور المتأخرة،

والثاني : أن الذين ولدوا في المجتمع الإسلامي ونشأوا فيه، لم يكن قد بقي لهم من معاني كلمات الإله (و) الرب (و) العبادة (و) الدين ما كان شائعًا في المجتمع الجاهلي وقت نزول القرآن. ..... فكانت النتيجة أن تعذر على الناس أن يدركوا حتى الغرض الحقيقي والمقصد الجوهري من دعوة القرآن. .....الخ.

فلنا كذلك معه وقفات: -

الأولى : هذا القول كسابقه افتراض بلاحجة ، وقول مرسل بغير دليل ، فلا يعول عليه ولايلتفت إليه في تقرير أحكام للأمة أو عليها .

الثانية : هل من المعقول أو المقبول القول بأن العرب وهم قبائل شتى متفرقة ومختلفة ومتناحرة ، لكل منها لهجتها ، لاتجمعهم رئاسة واحدة ، ولا معتقدات موحدة ، وكانوا أمة أمية بنص القرآن ، قل من يعرف فيهم الكتابة والقراءة ، ليس لهم كتاب ، ولا إحاطة لهم بعلم، هل من المنطق القول بأنهم كانوا أكثر علما باللغة قبل ووقت نزول القرآن منهم بعد نزوله ؟ فلماذا أنز ل القرآن إذن مادامت ستضيق معارفهم وتنحسرأ وتنكمش المفاهيم لديهم بعد نزوله ؟ كيف يكون معنى - الإله والرب والدين والعبادة - واضحا عندهم قبل نزول القرآن وحال نزوله ، ثم بعد ذلك تختفى هذه المعانى ، أو تضيق عن كامل مفاهيمها ؟ كيف بعدما اشتمل القرآن على مئات الآيات التى توضح هذه المفاهيم، وتجليها بأجلى بيان ؟ كيف نقول بأن المسلمين فيما بعد العصر الزاهر صاروا أقل علما بمعانى القرآن من العرب في الجاهلية ؟ وها هى الآيات التى تتعرض لمفاهيم الألوهية والربوبية والدين والعبادة ، يزخر بها القرآن ، ويكفينا أن نفتح المصحف على سورة الأنعام أو الروم أو النمل أو القصص ، أو العنكبوت ، أو لقمان ، أو الرعد ، أوالرحمن أو أى سورة في القرآن ، لنرى هل يحتاج المرء بعد ذلك إلى بيان ؟. فهل كان العرب قبل نزول الوحى أعلم وأعرف باللغة ومعانيها منهم بعد نزوله ؟ ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ .

الثالثة : هذا الكتاب - القرآن - واضح ميسر لالبس فيه ، محكم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه، تنزيل من حكيم حميد .ولو قرأ المرء سورة الإخلاص ، وسورة المعوذتين لاستبان له مقصود القرآن منهما على سبيل الإجمال، وكذلك لو قرأ فاتحة الكتاب ، إنها مسألة لاتحتاج كثير مجهود وإنما

عظمة هذا الكتاب أنه ميسر للذكر والفهم ، ولكن : ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ؟ والقرآن الكريم والسنة المطهرة محفوظان بحفظ الله تعالى ، يكفى أن يسمعه من لا يتقن العربية إلا إحدى لهجاتها فيفهمه ، ويلم بمجمل مقاصده ، وتستنير بنوره بصيرته على الإجمال، وان جهل بعد ذلك بعض الفواصل بين الأحكام الواردة فيه . فيرجع فيها إلى أهل الذكر والمتخصصين ، وماعمل المفسرين وعلماء ا لقرآن إلا الجمع والتوفيق بين نصوصه ، وتوضيح لبعض غوامضه ، وذكر لأسباب وتاريخ نزوله، فيتضح بذلك المعنى المقصود للقارئ، وليس في كلامى هذا مدعاة للاستهانة بالقرآن أو الاجتراء عليه ، أو الإزراء على العلماء والمفسرين ، وإنما هو منهاة عن اتهام الأمة بجهل قرآنها حتى يقال بأنها صارت أجهل به من أهل الجاهلية ، أ وأن أبناءها يقولون ما لا يعلمون ، ويرددون ما لا يفهمون، كما يقول أصحابك ، وقد ذكرت لك بعض السور التى توضح ماقلناه بفضل الله تعالى .

قال الشيخ : الملاحظة الرابعة وتدور حول قولك بعدم الإقرار بالإسلام لمن ينطق بالشهادتين هذه الأيام نظرا لتفشى الجهل بمعنى لا إله إلا الله، وكذلك جهل الناس بمدلول هذه المصطلحات الأربعة- الإله – الرب – الدين- والعبادة . فهذا أيضا مما يحتاج إلى بيان وتوضيح نوجزه في الآتى :

أولا : أ حيلك إلى مبحث في كتاب « نظرات في التفكير والتكفير» لمؤلفه دكتور أحمد عبد الرحمن حيث يقول تحت عنوان : الإسلام يثبت للشخص بمجرد الشهادتين دون زيادة عليهما : « ...أن الله لا يطلب من العبد حتى نحكم بإسلامه إلا الشّهادتين، فإذا نطق بهما صار مسلمًا.. ثم نطالبه بعد ذلك بتكاليف الإسلام، لكنه أصبح مسلمًا من لحظة نطقه الشّهادتين أو أى كلمة فى معناهما وعلى ذلك أدلة كثيرة ثبتت عن رسول الله ﷺ منها :

١- حديث معاوية بن الحكم السّلمى ..حين لطم جارية له ، فسألها النّبى ﷺ قائلاً أين الله ؟ قالت : فى السّماء ، فسألها : ومن أنا؟ قالت : أنت رسول

الله، فقال لمعاوية: أعتقها فإنها مؤمنة مسلمة ،».

إن الرّسول ﷺ لم يطلب منها أكثر من الشّهادتين ولم يختبرها بأكثر من ذلك، فلما أقرت بهما شهد لها الرّسولﷺ بالإيمان.

٢- حديث عند مسلم وفيه : أن الرّسول خرج فى غزوة فلحقه رجل يريد أن يقاتل معه ، فسأله النّبى : تشهد ألا إله إلا الله وأنى رسول الل ؟ قال الرّجل لا ، فقال : ارجع فإنى لا أستعين بمشرك .ثم لحقه الرّجل ثانية فطلب الطّلب ذاته وأعاد عليه النّبى السّؤال « تشهد ألا إله إلا الله وأنى رسول الله» ؟ قال الرّجل : نعم ، فقال له : الحق بإخوانك فذهب الرّجل يجاهد مع المسلمين . لم يطلب منه النّبى أكثر من الشّهادتين كما ترى.

قال الإمام ابن رجب الحنبلى : ومن المعلوم بالضرورة أن النّبى كان يقبل ممن جاءه يريد الدّخول فى الإسلام الشّهادتين فقط ، ويعصم دمه بذلك، ويجعله مسلمًا، فقد أنكر على أسامة بن زيد قتله لمن قال لا إله إلا الله لما رفع عليه السّيف واشتد نكيره عليه . وفى الحديث : «أُمرت أن أقاتل النّاس حتى يقولوا لا إله إلا الله .فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله تعالى ». قال النّووى معلقًا عليه «وفيه صيانة مال من أتى بكلمة التوحيد ونفسه ولو كان عند السّيف» ، أى : لو رفعت عليه السّيف فنطق بالشّهادتين لم يجزلك قتله ولا أخذ ماله. ، ويوضح ابن تيمية هذه الحقيقة فيقول أيضًا فى ذلك :» وقد علم بالاضطرار من دين الرّسول ، واتفقت عليه الأمة، أن أصل الإسلام وأول ما يؤمر به الخلق شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، فبذلك يصير الكافر مسلمًا، والعدو وليًّا، والمباح دمه وماله معصومَ الدّم والمال ..ثم إن كان ذلك من قلبه، أى إن كان صادقًا فى قوله، فقد دخل فى الإيمان، أى فهو مؤمن حقًا ..وإن قال بلسانه دون قلبه، أى لم يكن صادقًا فيها، فهو فى ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان» .. أى : هو مسلم فى الظّاهر، ولنا

ظاهره والله يتولى سريرته، ليس لنا أن نكفّره.

هذه هى شريعة الله لا تطلب من أحد لدخول الإسلام والحكم له به إلا الشّهادتين، أما الاختبارات والبدع والخزعبلات التى يقوم بها بعض الجماعات فليست من الإسلام فى شىء ، كما أن تكفير المسلمين الذين يصلون ويصومون ويحجون البيت ويقرأون القرآن لمجرد بعض المعاصى والذنوب، أو الاختلاف فى رأى ليس من الإسلام فى شىء.

إن الإسلام يثبت للشخص بمجرد إتيانه بالشّهادتين أو ما فى معناهما، مما يدل على سعة رحمة الله بخلقه وتيسيره عليهم، والقبول بأقل ما يقدمونه من أعمال ، ولكن أليست هناك شروط ذكرها العلماء حتى ينتفع الإنسان بكلمة لا إله إلا الله؟ أم أن كل من قال لا إله إلا الله يصير مؤمنًا ينتفع بها؟ أليس معنى ذلك أن الإيمان مجرد كلمة ، وهذا خلاف الصّحيح من أن الإيمان قول وعمل واعتقاد؟ فكيف نكتفى من الشّخص بكلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله فقط؟

هذا سؤال حسن ..وللجواب عليه نقول : قد اشترط العلماء لكلمة لا إله إلا الله شروطًا سبعة حتى تكون صحيحة نافعة لأصحابها تمام النّفع، وهى كالتّالى :

١- العلم بمعناها :أى يعلم أنه لا يستحق أحد أن يُعبَد إلا الله تعالى وحده لا شريك له، قال تعالى لنبيه: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩].

٢- اليقين الذى ليس فيه شك :لأن الإيمان يعنى اليقين فإذا وُجد الشّك زال اليقين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ ﴾ [الحجرات].

٣- القبول :أى يقبلها ولا يردها ولا يرفضها لأن الإسلام يعنى الاستسلام لله وفى الحديث : فإن قَبِلوا منك فَكُفّ عنهم.(البخارى ومسلم)

٤- الانقياد لها : فلا يتمرد عليها ولا يتحرج منها، إذ كيف يقول لا إلـه إلا الله ثم هو يتبرم بها ويتحرج منها؟.

٥- الصّدق المنافى للكذب :أى أن يكون صادقًا فى قوله ، يوافق قلبُه لسانَه، قال تعالى : ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾[المائدة:١١٩].

٦- الإخلاص المُنافى للشرك : لأنه كيف يوحد الله وفى الوقت نفسه يشـرك معه غيره ، وفى الحديث :« مَن مات يشرك بالله شيئًا دخل النّار».

٧- المحبة :التى تنافى كراهية الإسلام وكراهية الرّسول وكراهيـة المـؤمنين بسبب إيمانهم، فلا بد أن يذوق قلبُه الحُـبّ لله وأوليائـه ورسـالاته، كمـا قـال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[المائدة:٥٥].

هذه سبعة شروط ، ذكر تها لكَ مختصرةً جدًا، وكلها لها أدلتهـا الصّـحيحة من القرآن والسُّنَّة. ولكن هذه الشّروط لازمة لقبول الشّهادة عند الله فى الآخرة، أى ليكون الإيمان صحيحًا فى الآخرة؛ ليكون الشّخص مؤمنًا حقًا عند الله تعالى، ولا علاقة لها بأحكامنًا فى الدّنيا، وليس لنا أن نختبر النّاس فيها. إننا فى الدّنيا لا سلطان لنا على قلوب النّاس ونواياهم وليس لنا أن نختبرهم لنعرف صدقهم من كذبهم، ولكن نحن لنا الظّاهر والله يتولى السرائر.

من قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله فهو مؤمن مسلم عنـدنا ..أمّـا قلبُـه فالله وحده يعلم ما فيه إذا كان صادقًا أو كاذبًا، محبًّا أو كارهًا، عالمًا أو جاهلاً .. هذه كلها لا يعلمها إلا الله .أمّا نحـن فلنـا الظّـاهر فقـط .وكمـا قلنـا لقـد كـان المنافقون يُصلّون مـع رسـول الله ، يشـهدون بألسـنتهم وظـاهرهم بالإسـلام، ولكنهم يكفرون بقلوبهم وسرائرهم، ولم يعاملهم الرّسـول معاملـة الكفـار، ولا فتَّش وراءهم ولا اختبرهم وإِنَّمَا قَبِلَ منهم الظّاهر ، وترك سرائرهم إلى الله تعالى، واعتبرهم أصحابَه، كما فى الصّـحيح» : « لا يتحـدث النّـاس أن محمـدًا يقتـل

أصحابه » . مسلم

أمّا نحن فنرى مَن يفتش عن أسرار النّاس ويتلمس خفاياهم وخطاياهم، بل أحيانًا يجرى لهم الامتحانات والاختبارات حتى يشهد لهم بالإسلام ، إننا بذلك ننسب إلى الإسلام ما ليس منه، ونقول على الله ما لم يقله، ونفعل ما لم يفعله الرّسول ﷺ. .

إن الإسلام يَثْبُت للشخص بمجرد الشّهادتين، وشروط لا إله إلا الله السّبع هذه إِنَّمَا هى شروط لصحة الإيمان عند الله وفى الآخرة .أما فى الدّنيا فليس لنا أن نبحث عنها أو نفتش فيها، كما سبق بيانه«. انتهى من كتاب » نظرات فى التفكير والتكفير»، وأنا هنا أزيدك .

إن الرسول ﷺ وبخ أسامة بن زيد وعنفه عندما قتل رجلا نطق بالشهادتين ظنا منه انه قالها فرارا من القتل ، ورغم وجود هذه الشبهة نجد النبى ﷺ يعنف حبه وابن حبه ، ويعصم دم الرجل بمجرد النطق بكلمة التوحيد ،.وهذا الحديث ذكره البخارى فى صحيحه .

وكما عند البخارى أيضا عن المقداد بن عمرو أنه قال يا رسول الله : « أرأيت إن لقيت رجلا من المشركين فاقتتلنا فضرب إحدى يدى بالسيف ، ثم لاذ منى بشجرة فقال آمنت بالله ، أفأقتله يارسول الله ؟ قال لاتقتله ، قال يا رسول الله إنما ضرب إحدى يدى بالسيف ؟ قال لاتقتله ، فان قتلته فانه بمنزلتك قبل أن تقتله ، وانك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التى قال ».

وفى الحديث الذى ورد فى الصحيحين أن الرسول ﷺ قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فان قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله تعالى » أنظر قوله « عصموا منى دماءهم ...»، وقد انعقد الإجماع أن من يعصم دمه وماله بالشهادتين هو المسلم ، أما غير المسلم

فيعصم بالعقود سواء عقد أمان أو عقد ذمة . وقد سبق نقل ابن تيمية اتفاق العلماء على اعتبار الشهادتين كافيتين للحكم لصاحبهما بالإسلام .

ثانيا : من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن الرسول ﷺ مرسل للناس كافة ،عربهم وعجمهم، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ ، ومن البدهى أنه لا يتساوى العجمى والعربى فى فهم اللغة ومعرفة معانى الشهادتين ، وقد بلغهم جميعا ﷺ ، ولم يسأل أحدا منهم عن فهمه لكلمة التوحيد وقت إبلاغه، أو مدى معرفته بمعانى الإسلام ، لكنه بلغهم جميعا ، وقبل منهم جميعا إسلامهم ، وإلا فخبرنى بالامتحان الذى أجراه ﷺ لبلال الحبشى، أو لصهيب الرومى ، أو لسلمان الفارسى ، ولم يجره لغيره من العرب الخلص ، مع أن هؤلاء الثلاثة لم يكونوا من العرب ، ووارد أنهم لم يكونوا يتقنون العربية كأهلها؟

ثالثا : لقد فتح المسلمون بلاد العجم سواء من فارس أو الروم ، وتتابعت فتوحاتهم فى بلاد البربر شمالى إفريقيا، ودخلوا غرب أوربا ، فهل كانت هذه البلدان تعرف تماما معنى «لا إله إلا الله» ؟ أو تفهم مصطلحات القرآن ؟ إن قال أحد نعم فقد كذب ، وان قال لا قلنا له : فكيف قبل منهم المسلمون الإسلام والشهادتين رغم احتمال عدم فهمهم الكامل لمعناهما .

رابعا : القول بعدم الإقرار بإسلام ناطق الشهادتين فى هذه الأيام إنما هو مترتب على أصل خاطىء من الاعتقاد بأن معانى الشهادتين، ومصطلحات القرآن لم تعد واضحة ومفهومة لدى الناس، وإنما غابت عنهم ، حتى صاروا إلى حالة هم أقل فيها من عرب الجاهلية ، وبالتالى لا اعتبار لشهادتهم بالتوحيد ، وقد بينا خطأ هذا الافتراض من قبل ، وأنه مجاف للواقع مجانب للحقيقة ، فلا زالت معانى التوحيد ومفاهيم القرآن واضحة معلومة عند أغلب المسلمين حتى وان جهلوا

بعض التفصيلات التى تختلف من شخص لآخر، ومن مجتمع لآخر، ومن زمان إلى زمان .تحقيقا لقوله سبحانه ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ ، وكما هو معلوم فمابنى على باطل فهو باطل .

هكذا تكلم الشيخ ثم توجه بسؤاله للأمير الجالس فى صمت ، وقد امتقع لونه، وجعل يبلع ريقه ، وينظر إلى الشيخ فى غضب والشيخ يقول له :

ماهى تلك المعانى وهذه المفاهيم التى غابت عن أمة الإسلام وهى تقرأ كتابها وسنة نبيها ليل نهار ، والتى تفزع إلى العلماء والفقهاء فى كل نازلة ، مما ترتب على غياب هذه المفاهيم جهل الأمة بمعانى التوحيد ومقاصد ومحاور القرآن ، وتلبست بالشرك أو الكفر وهى لاتدرى كما تقول أنت أيها الأمير؟

الفصل الأول

الإله والإلوهية

قال الأمير : إن كثيرا من المفاهيم قد غابت عن الأمة ، ولم تعد معانيها واضحة فى عقول وقلوب الأجيال ، ليس مفهوما واحدا ولا اثنين ولا ثلاثة مفاهيم، لكننا نبدأ بأمهات هذه المفاهيم ، وكبرى المصطلحات وهى – الإله والرب والدين والعبادة ، هذه الأربعة هى الأساس ، وعليها يقوم بناء القرآن الكريم ، وهى الأم ومنها تتولد سائر المفاهيم وكافة المعانى ، وهاأنا أعرضها لك موضحا معانيها، ومبينا كيف غابت من الأمة ، مستدلا على كل مصطلح منها بمعاجم اللغة وآيات القران الكريم ، لتعلم أيها الشيخ إن ماقلته ليس اجتهادا منى، وإنما هو قول يؤيده صحيح اللغة ، وصريح القرآن، وأول ما أعرض له مصطلح الإله .

قال الأمير : التحقيق اللغوي

مادة كلمة الإله :(الهمزة واللام والهاء، وقد جاء في معاجم اللغة من هذه المادة مايأتي بيانه فيما يلي:

ألهت إلى فلان : سكنت إليه ، أله الرجل يأله : إذا فزع من أمرٍ نزل به فألهه أي أجاره ، أَلِه الرجلُ إلى الرجل : اتجه إليه لشدة شوقه إليه. ، ألَه الفصيل : إذا ولع بأمه ، أله آلهة وأُلوهة :عبد ، وقيل الإله مشتق من لاه يليه ليهًا: أي احتجب، ويتبين من التأمل في هذه المعاني المناسبة التي جعلت «أله يأله الهة» تستعمل بمعنى العبادة– أي التأله – الإله بمعنى المعبود:

١- أن أول ما ينشأ في ذهن الإنسان من الحافز على العبادة والتأله يكون

مأتاه احتياج المرء وافتقاره ، وما كان الإنسان ليخطر بباله أن يعبد أحدًا ما لم يظن فيه أنه قادرعلى أن يسد خلته، وأن ينصره على النوائب ، ويؤويه عند الآفات، وعلى أن يسكن من روعه في حال القلق والاضطراب.

٢- وكذلك اعتقاد المرء أن أحدًا ما قاض للحاجات ، ومجيب للدعوات ، يستلزم أن يعده أعلى منه منزلة ، وأسمى مكانة ، وألا يعترف بعلوه في المنزلة فحسب ، بل أن يعترف كذلك بعلوه وغلبته في القوة والأيد.

٣- ومن الحق كذلك أن ما تقضى به حاجات المرء غالبًا حسب قانون الأسباب والمسببات في هذه الدنيا ، ويقع جل عمله في قضاء الحاجات تحت سمع المرء وبصره ، وفي حدود لا تخرج من دائرة علمه ، لا ينشئ في نفس المرء شيئًا من النزوع إلى عبادته أبدًا، خذ لذلك مثلا : أن رجلاً يحتاج إلى مال ينفقه في بعض حاجته ، فيأتي رجلاً آخر يطلب منه عملاً أو وظيفة ، فيجيبه الرجل إلى طلبه ويقلده عملاً ، ثم يأجره على عمله ، فإن الرجل لا يخطر له ببال أصلاً – فضلاً عن أن يعتقد – أن الرجل يستحق العبادة من قبله ، لما علم بل رأى بأ م عينه كل المنهاج الذي بلغ به غايته ، وعرف الطريقة التي اتخذها الرجل لقضاء حاجته ، فإن تصور العبادة لا يمكن أن يخطر ببال المرء إلا إذا كان شخص المعبود وقوته من وراء حجاب الغيب، وكانت مقدرته على قضاء الحوائج تحت أستار الخفاء ، من ها هنا قد اختيرت للمعبود كلمة تتضمن معاني الاحتجاب ، والحيرة، والوله، مع اشتمالها على معنى الرفعة والعلو.

٤- ورابع الأربعة أنه من الأمور الطبيعية التي لا مندوحة عنها أن يتجه الإنسان في شوق وولع إلى من يظن فيه أنه قاد ر على أن يقضي حاجته إذا احتاج، وعلى أن يؤويه إذا نابته النوائب ، ويهدئ أعصابه عند القلق.

فتبين من ذلك كله أن التصورات التي قد أطلقت من أجلها كلمة الإله على

المعبود هي : قضاء الحاجة ، والإجارة ، والتهدئة ، والتعالي ، والهيمنة ، وتملك القوى التي يرجى بها أن يكون المعبود قاضيًا للحاجات ، مجيرًا في النوازل ، وأن يكون متواريًا عن الأنظار ، يكاد يكون سرًا من الأسرار لا يدركه الناس ، وأن يفزع إليه الإنسان ويولع به.

تصور الإله عند أهل الجاهلية :

و يكمل الأمير حديثه فيقول : يجمل بنا بعد هذا البحث اللغوي أن ننظر ماذا كانت تصورات العرب والأمم القديمة في باب الإلوهية التي جاء القرآن بإبطالها.

يقول سبحانه وتعالى:

١) ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴾ [مريم :٨١].

٢) ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [يس :٧٤]، يتبين من هاتين الآيتين الكريمتين أن الذين كان يحسبهم أهل الجاهلية آلهة لأنفسهم كانوا يظنون بهم أ نهم أولياؤهم وحماتهم في النوائب والشدائد وأنهم يكونون بمأمن من الخوف والنقض إذا احتموا بجوارهم.

٣) ﴿ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود ١٠١].

٤) ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [النحل :٢٠].

٥) ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [القصص :٨٨].

٦) ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ

وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[يونس :٦٦]. وتتجلى من هذه الآيات بضعة أمور.

أحدها : أن الذين كان أهل الجاهلية يتخذونهم آلهة لهم كانوا يدعونهم عند الشدائد ويستغيثون بهم.

والثاني : أن آلهتهم أولئك لم يكونوا من الجن أو الملائكة أو الأصنام فحسب بل كانوا كذلك أفرادًا من البشر قد ماتوا من قبل، كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ دلالة واضحة .

والثالث : أنهم كانوا يزعمون أن آلهتهم هذه يسمعون دعاءهم ، ويقدرون على نصرهم . ولابد للقارئ في هذا المقام من أن يكون على ذكر من مفهوم الدعاء ، ومن وضعية النصرة التي يرجوها الإنسان من الإله ، فالمرء إذا كان أصابه العطش مثلا فدعا خادمه ، وأمره بإحضار الماء ، أو إذا أصيب بمرض فدعا الطبيب لمداواته ، لا يصح أن يطلق على طلب الرجل للخادم أو للطبيب حكم «الدعاء» ، كذلك ليس من معناه أن الرجل قد اتخذ الخادم أو الطبيب إلهًا له ، وذلك أن كل مافعله الرجل جار على قانون العلل والأسباب ولا يخرج عن دائرة حكمه .ولكنه إذا استغاث بولي أو وثن – وقد أجهده العطش أو المرض– بدلا من أن يدعو الخادم أو الطبيب ، فلا شك أنه دعاه لتفريج الكربة واتخذه إلهاً .لأنه دعا وليًا قد ثوى في قبر يبعد عنه بمئات من الأميال ، فكأنه يراه سميعًا بصيرًا، ويزعم أن له نوعًا من السلطة ، ومما ينبغي أن يلاحظ في هذا المقام أن كلمة الإله جاء استعمالها في القرآن بمعنيين اثنين، أحدهما : المعبود الذي يعبده الناس في الواقع ، حقاً كان ذلك المعبود أم باطلاً ،

وثانيهما : المعبود الذي يستحق في حقيقة الأمر أن يعبد ، وفي هذه الآية : ﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ

مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ [الرعد:١٣– ١٥] ، قد استعملت كلمة الإله (في الموضعين منها بهذين المعنيين المختلفين على عالم الأسباب مما يجعله قادرًا على أن يقوم بإبلاغه الماء أو شفائه من المرض ، وكذلك إذا دعا وثنًا في مثل هذه الحال يلتمس منه الماء أو الشفاء ، فكأنه يعتقد أن الوثن حكمه نافذ على الماء أو الصحة أو المرض، مما يقدر به أن يتصرف في الأسباب لقضاء حاجته تصرفًا غيبيًا خارجًا عن قوانين الطبيعة

.يقول الأمير : وصفوة القول أن التصور الذي لأجله يدعو الإنسان الإله ويستغيثه ويتضرع إليه هو لا جرم تصور كونه مالكًا للسلطة المهيمنة على قوانين الطبيعة وللقوى الخارجة عن دائرة نفوذ قوانين الطبيعة.

٧) ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأحقاف :٢٧].

٨) ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يس :٢٢].

٩) ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر :٣].

١٠) ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس :١٨].

فيتجلى من هذه الآيات الكريمة أمور عديدة منها :

أن أهل الجاهلية ما كانوا يعتقدون في آلهتهم أن الإلوهية قد توزعت فيما بينهم، فليس فوقهم إله قاهر، بل كان لديهم تصور واضح لإله قاهر كانوا

يعبرون عنه بكلمة الله في لغتهم ، وكانت عقيدتهم الحقيقة في شأن سائر الآلهة أن لهم شيئًا من التدخل والنفوذ في إلوهية ذلك الإله الأعلى ، وأن كلمتهم تُتلقى عنده بالقبول وأنه يمكن أن تتحقق أمانينا بواسطتهم ونستدر النفع ونتجنب المضار باستشفاعهم ، ولمثل هذه الظنون كانوا يتخذونهم أيضًا آلهة مع الله تعالى .ومن هنا يتبين أن الإنسان إن اتخذ أحدًا شافعًا له عند الله ثم أصبح يدعوه ويستعين به ويقوم بآداب التبجيل والتعظيم ويقدم له القربات والنذور، فكل ذلك على ما اصطلح عليه أهل الجاهلية اتخاذه إياه إلهًا .

١١) ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ [النحل:٥١].

١٢) ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗا ﴾ [الأنعام :٨٠].

١٣) ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ ﴾ [هود :٥٤] ويتضح من هذه الآيات الحكيمة، أن أهل الجاهلية كانوا يخافون من قبل آلهتهم أنهم إن أسخطوا آلهتهم على أنفسهم لسبب من الأسباب أو حرموا عنايتهم بهم وعطفهم عليهم نابتهم نوائب المرض والقحط والنقص في الأنفس والأموال ونزلت بهم نوازل أخرى.

١٤) ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [التوبة :٣١].

١٥) ﴿ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان :٤٣].

١٦) ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ ﴾ [الأنعام :١٣٧].

١٧) ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾[الشورى :٢١].

وفي الآيات يقف المتأمل على معنى آخر لكلمة الإله يختلف كل الاختلاف

عن كل ما تقدم ذكره من معانيها ، فليس ههنا شيء من تصور السلطة المهيمنة على قوانين الطبيعة ، فالذي اّتخذ إلهًا هواه إما واحد من البشر ، أو نفس الإنسان نفسه ، ولم يتخذ ذلك إلهًا من حيث أن الناس يدعونه أو يعتقدون فيه أنه يضرهم وينفعهم ، أو أنه يستجار به ، بل قد اتخذوه إلهًا من حيث تلقوا أمره شرعًا لهم، وائتمروا بأمره وانتهوا عما نهى عنه ، واتبعوه فيما حلله وحرمه ،. وزعموا أن له الحق في أن يأمر وينهى بنفسه ، وليس فوقه سلطة قاهرة يحتاج إلى الرجوع والاستناد إليها ، فالآية الأولى تبين لنا كيف اتخذت اليهود والنصارى أحبارهم ورهبانهم أربابًا وآلهة من دون الله ، كما بين ذلك الحديث النبوي الشريف فيما رواه الإمام الترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم ط «أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفي عنقه صليب من ذهب وهو يقرأ هذه الآية، قال، فقلت : إنهم لم يعبدوهم، فقال :بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم»..

وأما الآية الثانية فمعناها واضح كل الوضوح، وذلك أن من يتبع هوى النفس ويرى أمره فوق كل أمر فقد اتخذ نفسه إلهًا له في واقع الأمر.

أما الآيتان التاليتان بعدهما فإنه وإن وردت فيهما كلمة الشركاء (مكان) الإله فالمراد بالشرك هو الإشراك بالله تعالى في الإلوهية .ففي هاتين الآيتين دلالة واضحة على أن الذين يرون أن ما وضعه رجل أو طائفة من الناس من قانون أو شرعة أو رسم هو قانون شرعي من غير أن يستند إلى أمر من الله تعالى، فهم يشركون ذلك الشارع بالله تعالى في الإلوهية.

ملاك الأمر في باب الإلوهية :

يقول الأمير : إن جميع ما تقدم ذكره من المعاني المختلفة لكلمة الإله يوجد فيما بينها ارتباط منطقي لا يخفى على المتأمل المستبصر . فالذي يتخذ كائنًا ما

وليًا له ونصيرًا وكاشفًا عنه السوء ، وقاضيًا لحاجته ومستجيبًا لدعائه وقادرًا على أن ينفعه ويضره ، كل ذلك بالمعاني الخارجة عن نطاق السنن الطبيعية ، يكـون السبب لاعتقاده ذلك ظنه فيه أن له نوعًا من أنواع السلطة على نظام هذا العالم ، وكذلك من يخاف أحدًا ويتقيه ويرى أن سـخطه يجـر عليـه الضـرر ومرضـاته تجلب له المنفعة ، لا يكون مصدر اعتقاده ذلك وعمله إلا ما يكون في ذهنه من تصور أن له نوعًا من السلطة على هذا الكون.

ثم إن الذي يدعو غير الله ويفزع إليه في حاجاته بعد إيمانه بالله العلي الأعلى، فلا يبعثه على ذلك إلا اعتقاده فيـه أن لـه شـركافي ناحيـة مـن نـواحي السـلطة الإلوهية ، وعلى غرار ذلك من يتخذ حكم أحد من دون الله قانونًا ويتلقى أوامره ونواهيه شريعة متبعة فإنه أيضًا يعترف بسلطته القاهر ة.

فخلاصة القول : أن أصل الإلوهيـة وجوهرهـا هـو السـلطة سـواء أكـان يعتقدها الناس من حيث أن حكمها على هذا العـالم حكـم مهـيمن عـلى قـوانين الطبيعة ، أو من حيث أن الإنسان في حياته الدنيا مطيع لأمرها وتابع لإرشادها، وأن أمرها في حد ذاته واجب الطاعة والإذعان .

استدلال القرآن :

يكمل الأمير حديثه حول مفهوم كلمة الإله ، وأن جوهر الإلوهية هـو السـلطة فيقول : هذا هو تصور السلطة الذي يجعله القرآن الكريم أساسًـا يـأتي بـه مـن البراهين والحجج على إنكار إلوهية غير ا لله ، وإثبات الإلوهية لله تعالى وحده، فالـذي يسـتدل بـه القـرآن في هـذا الشـأن هـو أنـه لا يملـك جميـع السـلطات والصلاحيات في السماوات والأرض إلا ا لله ، فالخلق مخـتص بـه ، والنعمـة كلها بيده ، والأمر له وحده ، والقوة والحول في قبضته ، وكل ما في السـماوات والأرض قانت له ، ومطيع لأمره طوعاً وكرهًا، ولا سلطة لأحد سواه ولا ينفذ

فيها الحكم لأحد غيره ، وما من أحد دونه يعرف أسرار الخلق والنظم والتدبير، أو يشاركه في صلاحيات حكمه . ومن ثم لا إله في حقيقة الأمر إلا هو، وإذ لم يكن في الحقيقة إله آخر من دون الله ، فكل ما تأتونه من الأفعال معتقدين غيره إلهًا فهو باطل من أساسه ، سواء أكان ذلك دعاءكم إياه واستجارتكم له ، أم كان خوفكم إياه ورجاءكم منه ، أم كان اتخاذكم إياه شافعًا لدى الله ، أم كان إطاعتكم له وامتثالكم لأمره ؛ فإن هذه الأواصر والعلاقات التي قد عقدتموها مع غير الله ، يجب أن تكون مختصة بالله سبحانه لأنه هو الذي يملك السلطة دون غيره. وأما الأسلوب الذي يستدل به القرآن الكريم في هذا الباب ، فدونك بيانه في كلامه البليغ المعجز :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف:٨٤].
﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ، ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [النحل].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر:٣] ، ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ [الأنعام: ٤٦]، ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص].

- ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣] ، ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ

عَلَى ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾ [الزمر :٥].

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَاجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾ [الزمر :٦].

﴿ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النمل:٦٠] .

﴿ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ﴿٣﴾ ﴾ [الفرقان :٢].

ففي جميع هذه الآيات وغيرها لا تجد إلا فكرة رئيسية واحدة ألا وهي أن كلا من الإلوهية والسلطة تستلزم الأخرى وأنه لا فرق بينهما من حيث المعنى والروح .

فالذي لا سلطة له لا يمكن أن يكون إلهًا ، ولا ينبغي أن يتخذ إلها ، وأما من يملك السلطة فهو الذي يجوز أن يكون إلها ، وهو وحده ينبغي أن يتخذ إلهًا، ذلك لأن جميع حاجات المرء التي تتعلق بالإله أو التي يضطر المرء لأجلها أن يتخذ أحدًا إلهًا له لا يمكن قضاء شيء منها من دون وجود السلطة ، ولذلك لا معنى لإلوهية من لا سلطة له ، فإن ذلك أيضًا مخالف للحقيقة، ومن

النفخ في الرماد أن يرجع إليه المرء ، ويرجو منه شيئًا. والأسلوب الذي يستدل به القرآن واضعًا بين يد يه هذه الفكرة الرئيسية ، يمكن القارئ أن يفهم مقدماته ونتائجه حق الفهم بالترتيب الآتي :

١- إن أعمال قضاء الحاجة وكشف الضرر والإجارة والتوفيق والنصر والرقابة والحماية وإجابة الدعوات التي قد تهاونتم بها وصغرتم من شأنها ما هي بأعمال هينة في حقيقة الأمر، بل الحق أن صلتها وثيقة بالقوى والسلطات التي تتولى أمر الخلق والتدبير في هذا الكون ، فإنكم إن تأملتم في المنهاج الذي تقضى به حوائجكم التافهة الحقيرة ، عرفتم أن قضاءها مستحيل من غير أن تتحرك لأجله عوامل لا تحصى في ملكوت الأرض والسماء.

خذوا لذلك مثلا كأسًا من الماء تشربونها أو حبة من القمح تأكلونها فما أدراكم إذ تعمل كل من الشمس والأرض والرياح والبحار قبل أن تتهيأ لكم هذه وتصل إلى أيديكم ، فالحق أنه لا تتطلب إجابة دعائكم وقضاء حاجتكم وما إليها من الشؤون سلطة هينة ، بل يتطلب ذلك سلطة يقتضيها ويستلزمها خلق السماوات والأرض ، وتحريك السيارات ، وتصريف الرياح وإنزال الأمطار ، وبكلمة موجزة يقتضيها ويتطلبها تدبير نظام هذا الكون بأسره .

٢- وهذه السلطة غير قابلة للتجزئة ، فلا يمكن أبدًا أن تكون السلطة في أمر الخلق بيد وفي أمر الرزق بيد أخرى، وأن تكون الشمس مسخرة لهذا وتكون الأرض مذللة لذا ك ، كما لا يمكن أن يكون الإنشاء في يد والمرض والشفاء في يد أخرى ، والموت والحياة بيد ثالثة .فإنه لو كان الأمر كذلك ما أمكن لنظام هذا الكون أن تقوم له قائمة ، فما لابد منه أن تكون جميع السلطات والصلاحيات بيد حاكم واحد يرجع إليه كل ما في السماوات والأر ض ، فإ ن نظام هذا العالم يقتضي أن يكون الأمر كذلك وهو في الواقع كذلك.

٣- وإذ كانت السلطة كلها بيد الحاكم الواحد ولم يكن لأحد غيره نقير منها ولاقطمير، فالإلوهية أيضًا مخصوصة به لا محالة ، وخالصة له دون غيره ولا شريك له فيه فلا يملك أحد من دونه أن يغيثك أو يستجيب دعاءك أو يجيرك أو يكون حاميًا لك ونصيرًا أوليًا ووكيلاً ، أو يملك لك شيئًا من النفع أو الضرر ، إذًا لا إله لكم غير الله بمعنى من تلك المعاني التي قد تخطر ببالكم ، حتى إنه لا يمكن أن يكون أحدً إلهًا لكم بأن له دالة عند حاكم هذا الكون وتتقبل شفاعته لديه ، لمكانه من التقرب عند ه ، كلا بل ليس في وسع أحد أن يتصدى لأمر من أمور حكمه وتدبيره ، ولا يستطيع أحد أن يتدخل في شيء من شؤونه ، وكذلك قبول الشفاعة أو رفضها متوقف على مشيئته وإرادته ، وليس لأحد من القوة والنفوذ ما يجعل شفاعته مقبولة لديه.

٤ - وما يقتضيه توحد السلطة العليا أن يكون جميع ضروب الحكم والأمر راجعة إلى مسيطر قاهر واحد ، و أٍّ لا ينتقل منه جزء من الحكم إلى غير ه ، فإنه إذا لم يكن الخلق إلا له ولم يكن له شريك فيه ، وإذا كان هو الذي يرزق الناس ولم تكن لأحد من دونه يد في الأمر، إذا كان هو القائم بتدبير نظام هذا الكون وتسيير شؤونه ، ولم يكن له في ذلك شريك ، فما يتطلبه العقل ألاَّ يكون الحكم والأمر والتشريع إلا بيده كذلك ، ولا مبرر لأن يكون أحد شريكًا له في هذه الناحية أيضا ، وكما أّنه من الخطأ أن يكون أحد غيره مجيبًا لدعوة الداعي وقاضيًا لحاجة المحتاج ، ومجيرًا للمضطر في دائرة ملكوته في السموات والأرض ، فمن الخطأ والباطل كذلك أن يكون أحد غيره حاكمًا مستقلا بنفسه ، وآمرًا مستبداً بحكمه ، وشارعًا مطلق اليد في تشريعه .

إن الخلق والرزق والإحياء والإماتة، وتسخير الشمس والقمر، وتكوير الليل والنهار والقضاء والقدر، والحكم والملك ، والأمر والتشريع ..كل أولئك وجوه مختلفة للسلطة الواحدة ، ومظاهر شتى للحكم الواحد، والحكم والسلطة لا

يقبل شيء منهما التجزئة والتقسيم البتة ، فالذي يعتقد أمر كائن ما من دون الله مما يجب إطاعته والإذعان له بغير سلطان من عند الله ، فإنه يأتي من الشرك بمثل ما يأتي به الذي يدعو غير الله ويسأله ، وكذلك الذي يدعي أنه مالك الملك ، والمسيطر القاهر، والحاكم المطلق بالمعاني السياسية فإن دعواه هذه كدعوى الإلوهية ممن ينادي بالنا س : «إني وليكم وكفيلكم وحاميكم وناصركم»، و يريد بكل ذلك المعاني الخارجة عن نطاق السنن الطبيعية .

ألم تر أنه بينما جاء في القرآن أن الله تعالى لا شريك له في الخلق وتقدير الأشياء وتدبير نظام العالم ، جاء معه أن الله له الحكم وله الملك ليس له شريك في الملك ، مما يدل دلالة واضحة على أن الإلوهية تشتمل على معاني الحكم والملك أيضًا ، وأنه مما يستلزمه توحيد الإله ألا يشرك بالله تعالى في هذه المعاني كذلك ، وقد فصل القول في ذلك أكثر مما تقدم فيما يلي من الآيات : -

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران:٢٦] ، ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [الناس:١] ، وقد صرح القرآن بالأمر بأكثر من كل ما سبق في سورة غافر حيث جاء : ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ [غافر:١٦]، أي يوم يكون الناس قد انقشعت الحجب عنهم، ولا يخفى على الله خافية من أمرهم، ينادي المنادي :لمن الملك اليوم؟ ولا يكون الجواب إلا أن الملك لله الذي غلبت سلطته جميع الخلق، وأحسن ما يفسر هذه الآية ما رواه الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – عن عبد الله بن عمر م ، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ ورسول الله ﷺ يقو ل : هكذا بيده ويحركها، يقبل بها ويدبر، يمجد

الرب نفسه، أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا العزيز، أنا الكريم،) فرجف .برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا : ليخرن به .

هكذا عرض الأمير لمعنى كلمة الإله عند العرب فى الجاهلية ، وكذلك عرض لمعنى الإله فى القرآن كما يراه ثم قال :

« ننتهى من ذلك أن الإلوهية تعنى الحاكمية ، وأن الإله تعنى الحاكم ، سواءا بمعنى الحاكم الكونى ، أو الحاكم السياسى .» ، ولقد أوضح سيد قطب ذلك قائلا فى معالمه « إن السمة الأولى المميزة لطبيعة المجتمع المسلم هى أن هذا المجتمع يقوم على قاعدة العبودية لله وحده فى أمره كله ، هذه العبودية التى تميزها وتكيفها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتتمثل هذه العبودية فى التصور الاعتقادى ، كما تتمثل فى الشعائر التعبدية ، كما تتمثل فى الشرائع القانونية سواء . فليس عبدا لله وحده من لايعتقد بوحدانية الله سبحانه ، ..... وليس عبدا لله وحده من يتقدم بالشعائر التعبدية لأحد غير الله معه أو من دونه ..... وليس عبدا لله وحده من يتلقى الشرائع القانونية من أحد سوى الله ، عن الطريق الذى بلغنا الله به ، وهو رسول الله ﷺ . ويؤكد الأستاذ محمد قطب ذات المفهوم فيقول فى واقعنا المعاصر : « ..... أن منهج الله ليس هو الذى يحكم حياة الناس ، وأن الأمر يحتاج إلى دعوة الناس إلى الإسلام من جديد ، لا لأنهم يرفضون فى هذه المرة أن ينطقوا بأفواههم بلا إله إلا الله محمد رسول الله ، كما كان الناس يرفضون نطقها فى الغربة الأولى ، ولكن لأنهم فى هذه المرة يرفضون المقتضى الرئيسى لـ«لا إله إلا الله »، وهو تحكيم شريعة الله ، والامتثال لمنهج الله ، وإن كان ألف مليون من المحيط إلى المحيط ينطقون بأفواههم كل يوم لاإله إلا الله محمد رسول الله » .

ثم قال الأمير معقبا بعد ذلك : وبالنظر فى الآيات والنقول السابقة يتبين لنا عدة أمور :

أولا – أن الإله هو الحاكم والملك .

ثانيا : أن الإلوهية والسلطة وجهان لعملة واحدة لاينفك أحدهما عن الآ خر بل كل منهما مستلزم لصاحبه وكلاهما روح للآخر .

ثالثا – أن الحكم بمعنييه الكونى والشرعى لايقبل الشركة ولا التقسيم .

رابعا : أن أخص خصائص الألوهية هى الحاكمية والسلطة، وهما الهدف الأساس من الرسالة ومن الإلوهية .

- سكت الأمير بعدما باح بكل مالديه من من معانى حول مصطلح الإله ، وبرغم حديثه الطويل الذى كان من الممكن اختصاره فى أقل من ذلك بكثير ، إلا أن الشيخ كما علمنا دائما لم يقاطعه ، ولم يظهر ملالة من حديثه ، ولم يبد عزوفا عنه، وهكذا ورثة الأنبياء ، تعلموا من سيدهم ﷺ الذى لم يقاطع متحدثا قط حتى ينتهى ، ولم يعرض عن أحد بوجهه حتى يكون هو الذى ينصرف ، وما صافح أحدا قط فنزع يده حتى ينزع الرجل يده ، فما أشد حاجتنا اليوم لأخلاق النبوة ، وصبر وسعة قلوب العلماء الصادقين تنهد الشيخ وقال : هنيئا لك أيها الأمير، وأشهد بأنك بارع فى عرض فكرتك ، بليغ فى سرد قضيتك ، قادر على تملك قلوب مستمعيك ؟ إنك حقا كذلك ، ولكن لنتذكر ما اتفقنا عليه ألا وهو « أن مرجعنا ومردنا فى الفهم والتفسير والتقرير إنما هو الوحى قرآنا وسنة ، نفهمهما بفهم علماء الأمة من الصحابة والتابعين ، ومن كان على دربهم فى كل عصر ومصر» ، وأبدا لن تضيع الحقائق الإسلامية فى زحمة التنميقات والتزويقات اللغوية ، وإنّ حسن الأداء لايعنى حتما صحة القضية ولا سلامة المنطق الذى عرضت من خلاله ، فلقد قال ﷺ « فلعل أحدكم ألحن بحجته من أخيه فأقضى له ، فمن قضيت له من حق أخيه بشىء فلا يأخذه فإنما أقضى له بقطعة من النار » . ولئن نقلت أيها الأمير عن المودودى فى مصطلحاته الأربعة ، أو عن غيره من الكتاب

والمفكرين فإن الحق قديم ، والحق لايعرف بالرجال ، ولكن اعرف الحق تعرف أهله ، وأقوال الرجال يحتج لها ولايحتج بها ، فقول الرجل مهما بلغ لايكون بذاته دليلا، ولاتكون آراء الرجال حجة على غيرهم ، والا فخبرنى من أعطى هذا الحق لفريق دون آخر ؟ ولماذا لايكون قول الثانى حجة على الأول ؟ ولذلك فقد حسم القرآن هذه القضية كما سبق أن ذكرنا بقوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ ، ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ . والآن لى معك وقفات حول مصطلح الإله ، وكيفية تناولك إياه ، ومارتبت عليه من نتائج وأحكام ، فاسمع منى ، واعقل عنى ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . .

الوقفة الأولى – الله أو الإله :

قال الإمام ابن كثير فى تفسيره : « الله علم على الرب تبارك وتعالى ، يقال إنه الاسم الأعظم لأنه يوصف بجميع الصفات ، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ ﴾ – الحشر – ، فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له كما قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا ﴾، وقال تعالى : ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة » ...وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى ، ولهذا لايعرف فى كلام العرب له اشتقاق ، وقد نقله القرطبى عن جماعة من العلماء منهم الشافعى والخطابى وإمام الحرمين والغزالى ، وغيرهم ، وروى عن الخليل وسيبويه أن الألف واللام فيه لازمة ، قال الخطابى ألا ترى أنك تقول يا الله ولا تقول يا الرحمن ؟ ، فلولا أنه

من أصل الكامة لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام ، وقيل إنه مشتق واستدلوا عليه بقول رؤبة بن العجاج :

لله در الغانيـــات المـــده سـبحن واسـترجعن مـن تـألهى

فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر، وهو التأله من أله يأله الآلهة ، وتألهـا ، كمـا روى عن ابن عباس أنه قرأ قوله تعالى : ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ قال: -

عبادتك ، كان يعبد ولايعبد ، وكذا قال مجاهد وغيره ، وقـد اسـتدل بعضـهم على كونه مشتقا بقوله تعـالى : ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ ، كمـا قـال تعـالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ ، ونقل سـيبويه أن أصـله إلاه ، فأدخلـت الألف واللام بدلا من الهمزة ...مثل الناس أصلها أناس ، وقيل أصل الكلمة لاه ، فدخلت الألف واللام للتعظيم وهذا اختيار سيبويه قال الشاعر :

لاه ابن عمك لاأفضـلت فى حسـب عنـى ولا أنـت ديـانى فتخزونـى

وقال الكسائى والفراء : أصله الإله ، حذفت الهمزة وادغموا الـلام الأولى فى الثانية ، كما قال « لكنا هو الله ربى » أى لكن أنا ، وقد قرأها كذلك الحسـن ، قـال القرطبى ثم قيل هو مشتق من وله ، إذا تحير ، والوله ذهاب العقل ، .... فالله تعالى يحير أولئك فى الفكر فى حقائق صفاته ، فعلى هذا يكون ولاه ، فأبدلت الواو همزة، كما قالوا فى وشاح أشاح ووسادة أسادة ، وقال الرازى : هو مشـتق مـن ألهـت إلى فـلان أى سـكنت اليـه ، فـالعقول لاتسـكن إلا إلى ذكـره ، والأرواح لاتفـرح إلا بمعرفته لأنه الكامل على الإطلاق دون غيره .

قال تعالى : ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ ، قال : وقيـل مـن لاه يلـوه ، إذا احتجب ، وقيل : اشتقاقه من أله الفصيل أولع بأمه ، والمعنى أن العباد مـألوهون مولعون بالتضرع إليه فى كل الأحوال ، قال : وقيل مشتق من أله الرجـل يألـه ، إذا

فزع من أمر نزل به ، فألهه أى أجاره ، فالمجير لجميع الخلائق هو الله سبحانه ، لقوله تعالى : ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ ، وهو المنعم لقوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾، وهو المطعم لقوله تعالى : ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾، وهو الموجد لقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾، وقد اختار الرازى أنه اسم غير مشتق البتة ، قال : وهو قول الخليل وسيبويه وأكثر الأصوليين والفقهاء ، ثم أخذ يستند أنه لو كان مشتقا لاشترك فى معناه كثيرون ، و.... أن بقية الأسماء تذكر صفات له ... وحكى الرازى عن بعضهم : أن اسم الله تعالى عبرانى ثم ضعفه ، ثم قال الرازى : واعلم أن الخلائق قسمان ، واصلون إلى ساحل بحر المعرفة ، ومحرومون قد بقوا فى ظلمات الحيرة وتيه الجهالة ، فكأنهم قد فقدوا عقولهم وأرواحهم ، وأما الواجدون فقد وصلوا إلى عرصة النور ، وفسحة الكبرياء والجلال ، فتاهوا فى ميادين الصمدية ، وبادوا فى عرصة الفردانية فثبت أن الخلائق كلهم والهون فى معرفته ، وروى عن الخليل : لأن الخلق يألهون إليه بالفتح والكسر ، وقيل انه مشتق من الارتفاع ، فكانت العرب تقول لكل شىء مرتفع لاها ، وقيل أنه مشتق من أله الرجل إذا تعبد وتأله تنسك ، ...« انتهى كلام الإمام ابن كثير، وقريبا منه ذكره الأصفهانى فى مفردات القرآن .وبالنظر فيما ذكرته أنت أيها الأمير فى تعريف كلمة الإله فى اللغة ، وكذلك ما نقلته لك عن ابن كثير والأصفهانى وغيرهما تتجلى أمامنا عدة فوائد :

الأولى : اختلاف العلماء فى لفظ الجلالة هل هو اسم جامد غير مشتق عن غيره ، أم أنه مشتق من لفظ آخر على فريقين كما ذكرنا .

الثانية : الذين قالوا باشتقاقه اختلفوا فيما بينهم حول مصدره على آراء عدة كما تقدم .

الثالثة : لايوجد فيما ذكرته أنت ، ولافيما ذكرته أنا تعريف واحد عن علماء

اللغة يقول بأ ن كلمة «الله » أو كلمة « الإله» معناها الحاكم ، أو صاحب السلطان، أقول هذا مع معرفتى التامة بأن الله هـو الحكـم ويحكـم ولـه الحكـم والسـلطان والسيادة ، لكن لفـظ الجلالـة « الله» ، وكـذلك كلمـة « إلـه» لـيس مـن معانيهـا الحاكم ولاذو السلطة . فالاحتجاج باللغة على هذا المعنى غير صحيح ، لأن كلمة «إله» بمعنى حاكم أو ذو سلطان لم ترد فى معاجم اللغة ولا قواميسها ، رغم أن الله هو الحكم وله السلطان الكامل ، لكن اللغة لاتفيد هذا المعنـى ، وارجـع إلى كـل معانى اللغة تجدها جميعها تدور حول التعلق به ، والولع والشوق واللجـوء إليـه ، وإغاثته لمن يأتيه ، وتأله القلوب له ، وتعبـد الإنسـان لـه سـبحانه وتعـالى ، وقـد حارت فى ذاته وصفاته عقولهم ، واستراحت بـذكره قلـوبهم ، وأنـه سـبحانه سـر مكنون ، تعالى عن خلقه ، وعن العقول والظنون ، مما يحمـل القلـوب عـلى شـدة حبه وتعظيمه ، والاستسلام له ودوام الفزع إليـه ، أيـن كلمـة حـاكم ؟ أيـن كلمـة سلطة أو سلطان ؟ لاوجود لها فى تعريف «الإله لغة » كما رأيت ، قال ابـن القـيم «واسـم «الله» دال عـلى كونـه مألوهـا معبـودا ، تألهـه الخلائـق محبـة وتعظيمـا وخضوعا ، وفزعا إليه فى الحوائج والنوائب ». انتهى من مدارج السالكين ..

كذا أقوال أهل العلم والتفسير لمعنى كلمة « الإله» لم يذكروا فيها الحـاكم ولا الحاكمية - قال ابن عباس :« الله : ذو الإلوهية والمعبودية على خلقه أجمعين ومنـه قوله في ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ ويذرك وإلاهتـك أي عبادتـك ، وهـو قـول مجاهـد أيضا ».أ.هـ تفسير الطبري ١/ ٤١ - ووافق الطبري رحمه الله ابن عباس عـلى ذلـك التفسير للفظ الإله فقال: «فالإله : هو المعبود وهـو الله سـبحانه وتعـالى».اهـ - وقـال عكرمـة عنـد تفسـير قولـه تعـالى : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ قـال : « أفرأيت من جعل إلهه الذي يعبده مايهواه ويستحسنه، فإذا استحسن شيئا وهويـه اتخذه إلها».أ.هـ - وكذا قال فيها ابن جرير : (أفرأيت يا محمد من اتخـذ معبـوده هواه ، فيعبد ماهوى من شئ دون إله الحق) .أ.هـ ، ومما قاله الإمامان ابن تيميـة

وابن القيم فى تعريف الإله :

« قال ابن تيمية بأن الإله : (هو المألوه ، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد ، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب المخضوع له غاية الخضوع).اهـ. مجموع الفتاوي ١٠/ ٢٤٩ - وقال رحمه الله : « الإله الذي تألهه القلوب وتخضع له وتذل له وتخافه وترجوه وتنيب إليها في شدائدها وتدعوه في مهماتها وتتوكل عليه في مصالحها ، وتلجأ إليه تطمئن بذكره وتسكن إلى حبه ، وليس ذلك إلا لله وحده ، ولهذا كانت – لا إله إلا الله – أصدق الكلام ».اهـ [الفتاوى ١٣/ ٢٠١].

وقال رحمه الله : (إذ الإله : هو الذي يؤله فيعبد محبة وإجلالا وإنابة وإجلالا وإكراما ، والرب : هو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها) .أ.هـ - و قال ابن القيم : (الإله هو الذي تألهه القلوب محبة وإجلالا وإنابة وإكراما وتعظيما وذلا وخضوعا وخوفا ورجاء وتوكلا).اه مدارج السالكين - 3/460وقال : الإلهية التي دعت الرسل أممهم إلى توحيد الرب بها هي العبادة والتأليه ، ومن لوازمها توحيد الربوبية إلي أقر به المشركون فاحتج الله عليهم به ، فإنه يلزم من الإقرار به الإقرار بتوحيد الإلوهية) .أ.هـ[إغاثة اللهفان 2/135].

هذه بعض أقوال الإمامين وغيرهما فى تفسير معنى «الإله» ، توضح بجلاء أنه المستحق للعبادة لما فيه من صفات الكمال ونعوت الجلال سبحانه وتعالى ، وليس فيها أن الإله معناها الحاكم ولاصاحب السلطان .

الرابعة – حول قولهم بأنه مشتق واختلافهم فى مادة اشتقاقه : يقول العلامة ابن القيم رحمه الله « أظهر الألفاظ لفظ الله ، وقد اختلف الناس فيه أعظم الاختلاف هل هو مشتق أم لا؟ ..... إن جميع أهل الأرض علمائهم وجهالهم ومن

يعرف الاشتقاق ومن لايعرفه وعربهم وعجمهم يعلمون أن الله اسم لرب العالمين، خالق السموات والأرض ، الذى يحى ويميت ، وهو رب كل شىء ومليكه ، فهم لايختلفون أن هذا الاسم يراد به هذا المسمى ، وهو أظهر عندهم وأعرف وأشهر من كل اسم وضع لكل مسمى ، وان كان الناس متنازعين فى اشتقاقه فليس ذلك بنزاع منهم فى معناه ، إنما هو نزاع فى وجه دلالة اللفظ على ذلك المعنى مع اتفاقهم على أن المعنى واحد ، وهذا القدر لايخرج اللفظ عن افادته للسامع اليقين بمسماه . ....زعم السهيلى وشيخه ابن العربى أن اسم الله غير مشتق لأن الاشتقاق يلزمه مادة يشتق منها ، واسم الله قديم والقديم لامادة له فيستحيل الاشتقاق ، ولا ريب أنه ان أريد بالاشتقاق هذا المعنى وأنه مستمد من أصل آخر فهو باطل ، ولكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا ولا ألم بقلوبهم ، وإنما أرادوا أنه دال على صفة الإلهية كسائر أسمائه الحسنى ...فهذة الأسماء مشتقة من مصادرها بلاشك ، وهى قديمة والقديم لامادة له ، فما كان جوابكم عن هذه الأسماء فهو جواب القائلين باشتقاق اسم الله .ثم الجواب عن الجميع أننا لانعنى بالاشتقاق إلا أنها ملاقية لمصادرها فى اللفظ والمعنى لا أنها متولدة منها تولد الفرع من الأصل ، وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه أصلا وفرعا ليس معناه أن أحدهما تولد من الأخر، وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة ، .....فالاشتقاق هنا ليس هو اشتقاق مادى ، وإنما هو اشتقاق تلازم سمى المتضمن بالكسر مشتقا، والمتضمن بالفتح مشتقا منه ولامحذور فى اشتقاق أسماء الله تعالى بهذا المعنى .» انتهى من بدائع الفوائد .

الخامسة : الناظر فيما ذكره صاحب هذا الفكر وفى تعليقاته يجده قد وقع فى عدة أخطاء :

١- أنه ساوى بين الأصل ومقتضاه ، أى بين المعنى الأصلى وبين مايقتضيه

هذا المعنى ، أو بين المعنى وبين لوازمه ، . وهذا بلا شك خطأ فادح ، فالعلماء قاطبة يفرقون بين الأصل والفرع ، و بين المعنى الأصلى و مقتضاه ،. كما يفرقون بين دلالة المنطوق ودلالة المفهوم فيقدمون الأولى على الثانية .

٢- صاحب هذا الكلام أحل المعنى الاقتضائى محل المعنى الأصلى ، ووضع المعنى اللزومى موضع المعنى الأساسى ، أى أنه جعل الفرع مكان الأصل .

٣- قدم المقتضى كمعنى أساسى ، وجعل المعنى الأصلى فرعا عليه وتابعا له، مما أدى به إلى الانحراف عن مقاصد المصطلح وغاية المفهوم العظمى للألوهية والإله ، فأصبح مقصد القرآن من هذا المصطلح فى ناحية ، وصار ماقصده صاحب هذا الفكر بتقديمه الفرع على الأصل ، واحلاله المقتضى محل الأساس فى ناحية أخرى ، فانحرف بذلك عن بوصلة القرآن ووجهته وان كانت نيته حسنه وقصده فى ذاته صحيحا فى بيان مفهوم الإله أو مصطلح الإلهية ، لكن ليس كل من أراد الحق يدركه ، فلربما ينحرف عن الطريق فيضل عن الهدف ، وتفصيل هذه الثلاثة على النحو التالى :

الأولى : تسويته بين المعنى الأصلى ومقتضاه :

لكى تتضح أمامنا الصورة وتتجلى الحقائق أكثر لابد أن نقف على المعنى الاصطلاحى لكلمة «إله » ، وما هو مدلولها الأساسى ومفهومها الأصلى ، وبالنظر فى كتابات فقهاء وعلماء الإسلام نجد مثلا الإمام ابن تيمية يعرف الإله قائلا : « هو الذى يألهه القلب بكمال الحب والتعظيم والإجلال والإكرام والخوف والرجاء ونحو ذلك ». وقد تقدم كلامه وكذلك كلام ابن القيم الذى فيه: « واسم الله دال على كونه مألوها معبودا ، تألهه الخلائق محبة وتعظيما وخضوعا ، وفزعا إليه فى الحوائج والنوائب » ويقول أيضا رحمه الله « فمن اتسع قلبه لمشهد الإلهية ، وقام بحقه من التعبد الذى هو كمال الحب بكمال الذل

والتعظيم والقيام بوظائف العبودية فقد تم له غناه بالله الحق ، وصار من أغنى العباد ....» ، وقال الإمام ابن رجب الحنبلى : «الإله هو الذى يطاع فلايعصى هيبة له وإجلالا ومحبة وخوفا ورجاءا وتوكلا عليه وسؤالا منه ودعاءا له ولا يصلح ذلك كله إلا لله عز وجل » . بل إن المودودى نفسه فى ثنايا كلامه يعترف بالمعنى الأصلى لكلمة « إله وإلوهية » فيقول فى مصطلحاته الأربعة :

« ...ثم إذا كان العبد لم يقف به الأمر على أن يكون قد أسلم نفسه لسيده طاعة وتذللا بل كان مع ذلك يعتقد بعلائه ويعترف بعلو شأنه ، وكان قلبه مفعما بعواطف الشكر والامتنان على نعمه وأياديه فانه يبالغ فى تمجيده وتعظيمه ، ويتفنن فى إبداء الشكر على آلائه وفى أداء شعائره التعبدية ، وكل ذلك اسمه التأله والتنسك » .انظر كيف سمى هذه المعانى بالتأله والتنسك تتضح لك الصورة .

من هذه الأقوال يتجلى أمامنا المعنى الحقيقى الأول والأصيل لكلمة «الإله» و«التأله » ، وهومن تعلق القلب به سبحانه ، وكمال حبه والشوق والافتقار إليه ، والذل بين يديه ، ويوضح وحيد الدين خان هذا المعنى فيقول : « ...وبالتحليل المذكور يتضح الأمر على أن كلمة «الإله» تدل على تأله الإنسان لله واحتياجه إليه»، وبالرجوع إلى تعريف كلمة « الإله» لغة ، وضم ذلك إلى تعريفات علماء الاصطلاح يتبين بجلاء أن كلمة « الإله والتأله» فى معناها الأصلى هى حالة تقوم بقلب العبد تجاه خالقه سبحانه ، يحس فيها بالافتقار والشوق إليه ، ويشعر بالانكسار والحب له ، فيشتد تألهه أى تعلقه بسيده سبحانه وتعالى .هذا هو المعنى الرئيسى والأساس لكلمة « اله» وكلمة « إلهية وتأله» ، وليس فيها أن الإله تعنى المهيمن ولا المسيطر ولا صاحب السلطان ، إنما تأتى هذه المعانى تابعة للمعنى الأصلى حيث لا يتعلق القلب ولا يتوجه إلا إلى إله قادر ،عليم مالك مسيطر، له سلطة إنفاذ ما يريد . لكن هذه كلها ليست من معانى الإله ، وإنما هى مقتضيات

الألوهيته ، حيث أن العاجز لا يكون إلها ، وقد عاب الله أصنام المشركين لأنها عاجزة لاتستحق أن تعبد وتكون آلهة ، لكن أؤكد أن المألوه هو« من تعلقت به القلوب وعظمته النفوس ، والإله هو من تألهه القلوب وتحبه وتفتقر إليه وتذل له»، لعلك تسأل مادام الإله لابد أن يكون مهيمنا صاحب سلطة فما هو وجه الاعتراض ؟ وأكرر ليس الاعتراض على كون الله صاحب سلطة أو هيمنة ، لكن الاعتراض على اعتبار ذلك هو المعنى الأساسى لكلمة « إله» مع أن معاجم اللغة وفقهاء الإسلام لم يعرفوا الإله بأنه صاحب السلطة أو الهيمنة ، لكنهم قالوا : «الإله هو من تعلقت به القلوب محبة وتعظيما، ذلا له وشوقا إليه » ، ثم ترتب على ذلك ولزم منه أن يكون مهيمنا صاحب سلطة يقدر بها على إجارة وإغاثة وإعانة من يرجوه ويدعوه ، فالسلطة والهيمنة معنى تبعى ، وليست معنى أصليا لكلمة «إله» كما ترى . وهذه التفرقة بين المعنى الأصلى وبين مايقتضيه الإسم يترتب عليها سلوك معين وشعور محدد لدى الأفراد ، فالعبد لايسعه بحال من الأحوال أن ينصرف قلبه عن حب معبوده وتعظيمه والشوق إليه والذل والافتقار إليه ، هذا شعور لابد أن يكون ملازما للإنسان فى كل الأوقات ، وفى كل الأحوال ، لأنه ممكن غير متعذر بحال ، فهو مطلوب من المرء فى كل أحواله ، وأوقاته وأماكنه ، بينما المعنى التبعى أو الاقتضائى ليس ممكنا ولا مطلوبا فى كل حال ، بل هو مقيد بقيود ومحدد بضوابط ، ففى نفس اللحظة التى لا يسع المرء الخروج عن هيمنة الله الكونية وسلطته الكونية ، قد يعجز عن الخضوع والتنفيذ لسلطته الشرعية لأى سبب أو عارض يعرض له ، وبالتالى الفرض التبعى أو الاقتضائى يخضع لمدى قدرة المرء وسعته التى قال عنها القرآن بوضوح : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾، ولا تكليف مع العجز ، بينما المعنى الأصلى لكلمة «الإله » الذى هو كله قائم فى القلب فلا يسع المرء تركه مهما كانت الظروف .، فظهر بذلك الفارق بين المعنى الأصلى والمعنى الاقتضائى التبعى .، يقول وحيد الدين

خان معلقا على كلام المودودى : « فالهيمنة وتملك القوى والسلطة هى من مقتضيات الإله الحقيقى ، وليست من المعنى اللغوى ، أى أن « إله »لغة لاتعنى المهيمن ومالك القوى والسلطة ، بل يأتى هذا المعنى باعتبار أنه لايستحق الإلوهية إلا صاحب السلطة ذو القوة المتين ، ولكن هذا الفكر- فكر المودودى - لايقبل صورة القوة والسلطة باعتبارها من مقتضيات الأصل ، فسوى بين الأصل ومقتضاه ، ووضعهما فى قائمة واحدة » .

ترى ماذا قال المودودى حتى يرد عليه وحيد الدين بهذا الرد ؟ بالرجوع قليلا للوراء نجد كلام المودودى الذى ذكرته أيها الأمير مستشهدا به ، فيقول بعدما ذكر تعريفات الإله فى اللغة والتى ليس فيها معنى المهيمن ولاصاحب السلطة ، ثم ذهب يستخلص منها أن السر وراء تعلق الإنسان ولجوئه إلى ربه وتألهه له هو اعتقاده بأن له الهيمنة والقدرة والسلطة على تلبية حاجته ، ورغم أن هذا استنتاج صحيح لكن أكرر ليس هو المعنى الأصلى لكلمة « الإله» ، نجد المودودى يسوى بين المعنى الأصلى والمعنى الاستنتاجى التبعى فيقول « فتبين من ذلك كله أن التصورات التي قد أطلقت من أجلها كلمة الإله على المعبود هي : قضاء الحاجة، والإجارة والتهدئة ، والتعالي والهيمنة ، وتملك القوى التي يرجى بها أن يكون المعبود قاضيًا للحاجات مجيرًا في النوازل ، وأن يكون متواريًا عن الأنظار، يكاد يكون سرًا من الأسرار لا يدركه الناس، وأن يفزع إليه الإنسان ويولع به » ، . أرأيت كيف جمع المعانى اللغوية كلها برغم مابينها من فروق ، وكذلك المعنى الاستنتاجى الاقتضائى وجعلها كلها دليلا على الهيمنة والسلطة ، ثم جعل الأخيرة تعريفا لكلمة الإله .؟ . لقد أخر عنصر الحب والشوق والتوجه ، وقدم جانب الخضوع والسلطة وإيصال خدماته إلى البشر ، أى أنه أدخل المعنى التبعى الاقتضائى الاستنتاجى فى المعنى الأصلى الأساسى الاصطلاحى الذى أخره فى عبارته ، وجعل كلمة «الاله» تعنى « الهيمنة والسلطة والتأله ». برغم أن

الهيمنة والسلطة ليست من المعنى الأصلى للكلمة.وإنما هى معنى اقتضائى ، ، غيرأن الأستاذ المودودى وضع المعنيين فى جملة واحدة ، وجعلهما معنى واحدا لكلمة « الإله » ، وكأنهما على رتبة واحدة ، وهذا غير صحيح

الثانية : وضعه المعنى الفرعى الاقتضائى مكان المعنى الأصلى واستبداله به : يقول وحيد الدين فى تعقيبه على صاحب المصطلحات الأربعة : « وهو لم يكتف بإدخال تصور القوة والهيمنة والغلبة فى معنى الإله ، بل هدفه أن يحل المقتضى محل الأصل ، فغير المعنى الأصلى وحل السلطة والقوة محل الأصل ، ثم راح يرتب المقتضيات حول هذا المعنى الرئيسى » ، أى الذى أضافه ، وهو تصور الإله بمعنى «القوة والغلبة والسلطة » بينما المعنى الحقيقى للإله التأله والإجارة ، والمعانى الأخرى متعلقة به » ، هكذا يذكر وحيد الدين ، ولكن هل هذا صحيح ؟ هل أحل المودودى الفرع محل الأصل ؟ وهل وضع المعنى الاقتضائى موضع المعنى الحقيقى واستبدله به ؟ لنرجع سويا إلى ماذكره المودودى تحت عنوان ملاك الأمر حيث يقول : « إن جميع ما تقدم ذكره من المعاني المختلفة لكلمة الإله يوجد فيما بينها ارتباط منطقي لا يخفى على المتأمل المستبصر . فالذي يتخذ كائنًا ما وليًا له ونصيرًا وكاشفًا عنه السوء، وقاضيًا لحاجته ومستجيبًا لدعائه وقادرًا على أن ينفعه ويضره ، كل ذلك بالمعاني الخارجة عن نطاق السنن الطبيعية ، يكون السبب لاعتقاده ذلك ظنه فيه أن له نوعًا من أنواع السلطة على نظام هذا العالم ، وكذلك من يخاف أحدًا ويتقيه ويرى أن سخطه يجر عليه الضرر ومرضاته تجلب له المنفعة ، لا يكون مصدر اعتقاده ذلك وعمله إلا ما يكون في ذهنه من تصور أن له نوعًا من السلطة على هذا الكون. . ثم أن الذي يدعو غير الله ويفزع إليه في حاجاته بعد إيمانه بالله العلي الأعلى ، فلا يبعثه على ذلك إلا اعتقاده فيه أن له شركافي ناحية من نواحي السلطة الإلوهية ، وعلى غرار ذلك من يتخذ حكم أحد من دون الله قانونًا ويتلقى أوامره ونواهيه شريعة متبعة

فإنه أيضًا يعترف بسلطته القاهر ة ثم يقول : « فخلاصة القول أن أصل الإلوهية وجوهرها هو السلطة سواء أكان يعتقدها الناس من حيث أن حكمها على هـذا العالم حكم مهيمن على قوانين الطبيعة ، أو من حيث أن الإنسان في حياته الـدنيا مطيع لأمرها وتابع لإرشادها ، وأن أمرها في حد ذاته واجب الطاعة والإذعان . « أنظر إلى خلاصة القول عنده » أن أصل الألوهية وجوهرها هو السـلطة » ، لتـرى كيف نحى المعنى الأصلى لكلمة « اله» الذى هو التأله والافتقار والحب والشوق والتعظيم ، وكلها معـان قلبيـة تـربط المـرء بربـه إلى جعـل السـلطة هـى الأصـل والجوهر ، أى أن المعنى الأول الذى هو الأصل والأساس صار هو المعنى الثانى التابع وأصبحت السلطة هى جـوهر الإلوهيـة وأصـلها ، فمـاذا تبقـى مـن معنـى الإلوهية إذا ذهبت السلطة بالأصل والجوهر ؟ .ولاحظ أنه ذكر السلطة بشـقيها ، السلطة الكونية فى عالم ما وراء الطبيعة ، والسلطة الدينية التى يخضع لهـا الإنسـان ويطيع إرشاداتها أى السلطة السياسـية أو القانونيـة ، وهـذا لـه مزيـد بيـان بعـد . والغريب أن الأستاذ المودودى يذكر العديـد مـن الآيـات ليـدلل بهـا عـلى نظريـة السلطة هذه ثم يعقب تعقيبا خطيرا يقـول فيـه « ففـى هـذه الآيـات مـن أولهـا إلى آخرها. لا تجد إلا فكرة رئيسية واحـدة ألا وهـى أن كـلا مـن الألوهيـة والسـلطة تستلزم الأخرى وأنه لافرق بينهمـا مـن حيـث المعنـى والـروح » ، هكـذا عنـده الألوهية هى السلطة ، والسلطة هى الألوهية معنى وروحا ..

ولكن لننظر إلى هذا التقرير الذى يقرره الأستاذ بأن جميع الآيات تفيد أنه لافرق بين الإلوهية والسلطة لامن حيث المعنـى ولامـن حيـث الـروح لنـرى هـل هـذا الكلام صـحيح أم لا ؟ وبـالطبع لـن نقـف مـع كـل الآيـات وحسـبنا أن نعـرض لبعضها، ومايسرى على البعض ينسحب على الكل ، وإذا بطل زعمه فى بعضها فقد سقطت حجته فيها كلها حيـث قـال « مـن أولهـا إلى آخرهـا .....» . ونقـف أول مانقف مع آية فاطر التى استدل بها الأستاذ على أن الإلوهية والسلطة لافرق بينهما

لافى الروح ولافى الجوهر قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ [فاطر:٣] ، هذه الآية استدل بها المودودى كما ذكرت لاثبات أنه لافرق بين الألوهية والحاكمية لا من حيث المعنى ولامن حيث الروح ، فماذا يقول المفسرون عنها ؟ يقول الشيخ السعدى فى تفسيرها : « يأمر تعالى جميع الناس أن يذكروا نعمته عليهم ، وهذا شامل تذكرها بالقلب اعترافا وباللسان ثناءا وبالجوارح انقيادا ،فان ذكره تعالى داع لشكره ، ثم نبههم على أصول النعم وهى الخلق والرزق ، فقال ﴿ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾، ولما كان من المعلوم أنه ليس أحد يخلق ويرزق الا الله نتج من ذلك أن كان ذلك دليلا على ألوهيته وعبوديته .....« انظر إلى قول السعدى » « ولما كان من المعلوم أنه ليس أحد يخلق ويرزق إلا الله نتج من ذلك أن كان ذلك دليلا على ألوهيته وعبوديته ....» لتعلم أن الله ذكر سلطة الخلق والرزق اللتين هما أصلا نعمه ذكرهما كدليل على ألوهيته وليس كمعنى من معانى الألوهية ، فالسلطة هنا ذكرت كمقتضى ودليل على إلوهية الله ، وليست كمعنى لكلمة إله كما يريد المودودى أن يثبتها . ويقول الأستاذ وحيد الدين حول آية فاطر السابقة : « ولم ترد فى هذه الآية وآيات أخرى مثلها ذكر السلطة مع الإلوهية باعتبارهما شيئا واحدا لافرق بينهما ، بل ذكرت السلطة كدليل على إلوهية الإله الحقيقية ، ولم يرد أن معنى الإلوهية هو السلطة والسيطرة ، فلم تدعون إلها من لايتصف بهذه الصفة ؟ ولكن كما ذكرنا فان التأله لايكون إلا إلى ذات تسيطر على عالم الأسباب ، وهذا التصرف بيده سبحانه وتعالى ، فهو الأحق أن يدعى إلها ، وبعبارة أخرى فإن ماذكر كان باعتبار الحاجة ، لا باعتبار السلطة .» . ماقولك أيها الأمير فيما بينه العلماء أن السلطة ليست من معانى الإلوهية الأساسية ، وإنما هى من دواعيها ومقتضياتها حتى لوكانت سلطة عالم ما وراء الطبيعة ؟ لكن الأستاذ المودودى لايقنع بذلك فحسب بل يضيف السلطة السياسية والمدنية فيدخلها

كمعنى أصلى لكلمة الإله أو الإلوهية وقد نقلنا قوله « فخلاصة القول أن أصل الإلوهية وجوهرها هو السلطة سواء أكان يعتقدها الناس من حيث أن حكمها على هذا العالم حكم مهيمن على قوانين الطبيعة ، أو من حيث أن الإنسان في حياته الدنيا مطيع لأمرها وتابع لإرشادها، وأن أمرها في حد ذاته واجب الطاعة والإذعان ». أنظر كيف جعل السلطة السياسية التى هى الطاعة ، هى المعنى الأصلى للإلوهية بالرغم أن السلطة كلها الكونية والشرعية هى معنى اقتضائى وليست معنى أصليا للإلوهية والإله ؟ وقال إن السلطة لاتقبل التجزئة ولا الشركة. فكانه يقول : « الإلوهية هى السلطة ، والسلطة هى أصل الإلوهية وجوهرها ، ولافارق بين السلطة والإلوهية ، لافى المعنى ولافى الجوهر ، ولافى الروح ، والسلطة تشمل ما وراء الطبيعة ومايلزم الإنسان طاعته واتباع إرشاداته ، وهذه السلطة الأخيرة هى جوهر ومعنى الإلوهية ، والآيات كلها تدل على ذلك ، فاجعلوا هدفكم الأول والأساسى والأصيل تحقيق السلطة السياسية التى تخضع الإنسان فى شؤون حياته » هذه هى خلاصة الفكرة لدى الأستاذ الذى تحتج أيها الأمير بكلامه ، ولنعرض لآيات أخرى مما يستدل بها على نفس المعنى .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص] ، استدل بها الأستاذ على أن الإلوهية معناها السلطة السياسية والحكم ، ولننظر نحن في كلام الفقهاء وعلماء التفسير لنعرف أحقا مايقول ؟

نقل وحيد الدين عدة تفسيرات للعلماء حول هذه الآية منها : أن الحكم هنا بمعنى القضاء والفصل ، فينقل قول الطبرى :

« وله الحكم » ولـه القضـاء بـين خلقـه « وفى روح المعـانى للألوسـى : « أى القضاء النافذ في كل شيء من غير مشاركة فيه لغيره » وفى الكشاف « القضـاء بـين عباده » .كما نقل عن ابن عباس ط قولـه فيهـا « يحكـم لأهـل طاعتـه بـالمغفرة ولأهل معصيته بالشقاوة » ثم قال وحيـد الـدين : « والـرأى الثـانى أى قـول ابـن عباس هو الراجح» ، . فالحكم في الآيات كما ترى يدور بين القضاء وبين الفصل بين خلقه في الآخرة ، فريق في الجنة وفريق في السعير، أين هـى السـلطة السياسـية والحكم السياسى في الآيات ؟ ، لكن أيها الأمير لاتعجـل فلسـوف أذكـر لـك مـا يسرك حول هذه الآيات حيث يقول العلامة السعدى في تفسيرها : « هذه الآيـات فيها عموم خلقه لسائر المخلوقات ، ونفوذ مشيئته بجميع البريـات .....وأنـه هو الحاكم في الدارين : في الدنيا بالحكم القدرى الذى أثره جميـع مـا خلـق وذرأ ، والحكم الدينى الذى أثره جميع الشرائع والأوامر والنـواهى ، وفى الآخـرة يحكـم بحكمه القدرى والجزائى ....» فقد صرح السعدى بشمول الآية للحكـم الـدينى في الدنيا ، ونحن لا نختلـف في أن الله هـو الـذى يحكـم في الـدنيا قـدرا وشـرعا ، وكذلك في الآخرة ، لكننا نناقش هل كلمة الإله والإلوهية هل في معناهـا الأصـلى الحكم والسلطة ؟ أم أن هذا معنى اقتضائى تبعى ؟ نحن لا نختلف أبـدا معـاذ الله حول حاكمية الله القدرية والشرعية . وبذكر رأى السعدى تكون الآية قد ورد فيهـا ثلاثة مذاهب : الأول بمعنى القضاء بـين عبـاده ، والثـانى: بمعنـى الفصـل بـين العصاة والأبرار، والثالث : بمعنى الحكم الكونى والشرعى في الدنيا ، هذه ثلاثـة آراء فلماذا نأخذ أحدها ونجعله الأساس في بحثنا ونبنـى عليـه مـع أنـه لـيس هـو المعنى الأساس ولا الأصيل لكلمة اله أو ألوهية؟

قد يقول قائل أليس القضاء بين الناس يكون بتفويض من الحاكم ؟ ونقول نعم لاشك في ذلك ، فيحتج هو بهذا الجواب على أن الحكم هـو أسـاس القضـاء فـلا داعى لتفسير الآية بالقضاء ، ونقول له : هذا الكلام حجة عليك وليس حجة لك ،

لأن الفصل بين الناس إنما جاء تبعا للحكم وليس مساويا له ، وكذلك الحكم جاء تبعا للإلوهية وليس مساويا لها ، فضلا أن يكون هو الأصل والجوهر أ والسابق عليها ، فليس الإله بمعنى الحاكم ، ولا الإلوهية معناها الحاكمية ، . وان كان الحكم والحاكمية مترتبين على الإله والإلوهية ، ولازمين من لوازمهما .

هذان موضعان ضربناهما لندلل على عدم صحة ماذهب إليه الأستاذ المودودى من « جعله الإله بمعنى الحاكم» ، واستدلاله بالآيات كما رأينا ، غير أن الأستاذ يصر على إكمال نظرته الغريبة على تفسير القرآن حتى النهاية ، فيعرض لمواضع أخرى يراها من أوضح المواضع التى تؤيد فكرته وهى كالتالى :

قوله تعالى :﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران:٢٦] و - قوله تعالى : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [الناس] ، وقد صرح القرآن بالأمر بأكثر من كل ما سبق في سورة غافر . حيث جاء قوله تعالى:﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر:١٦] ، هذه المواضع الثلاث يراها المودودى تساند فكرته في جعل السلطة والحكم هى جوهر الإلوهية وأصلها وأساسها ، ولكن بالنظر الدقيق فيها لا نجد ذلك ففى الآية الأولى :

« قل اللهم مالك الملك ...» آل عمران ، لاتتحدث عن الحكم ولا السلطة على أنها بمعنى الإلوهية ، إنما تقرر أن الله هو مالك الملك في الدنيا ، ونحن لا نعترض على ذلك ، وتقرر أن الله هو واهب الملك للملوك من البشر ، ولا اعتراض على ذلك أيضا ، كما تقرر أن الله يسلب ملكه الذى وهبه متى شاء ، وهذا حق لاخلاف فيه ، ذلك لأنه على كل شىء قدير ، لكن الآية لم تذكر أن الملك هدف أساسى يجب أن تسعى اليه الأمة ، لأنه ليس كما يتصور الأستاذ أنه جوهر الإلوهية ولا يختلف عنها معنى ولا روحا ، بل على العكس هى تقرر أن الملك

هبة من الله ، فلا ينبغى أن ننشغل بطلبه في الأساس ، إنما الواجب أن نحقق معانى الإلوهية والتعبد لله على كل المستويات ، وفى كل الأصعدة ، وساعتها سيؤتينا الله الملك ، وليس الملك والسلطة والحكم والحاكمية - بمعنى الحكومة الإسلامية- معنى أساسيا ولا أصليا للإله ولا الإلوهية فتبين الفارق . -

- أما سورة الناس التى ذكرها فهى تتحدث عن الوسواس الخناس ، أى مخلوق يقوم بأعمال خفية ويخنس عند ذكر الله ، فهى كلها تتعلق بجانب القلوب والنفوس والأرواح ، فتقرر السورة بأن أعمال الوسوسة والخداع المستترة والخفية لا ينجيك منها إلا الله ، فاستعيذوا به سبحانه ، والاستعاذة هى الاحتماء والتعوذ بالله واللجوء إليه ، والله رب الناس وإلههم ومالكهم فلن يغلبه أحد ولا يشذ عن قدرته شاذ سواءا من الجن أو الإنس أو غيرهم ، فما علاقة ذلك بالحاكمية والسلطة السياسية والمدنية التى هى الوجه الأخر للإلوهية وجوهرها كما يرى الأستاذ ويقرر؟

- وبقيت أمامنا آية غافر ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ ، والآية تصور مشهدا من مشاهد القيامة حيث يجتمع الخلق جميعا لاتخفى منهم خافية ، ولقد جاءوا فرادى كما خلقهم الله أول مرة ، ليس معهم شىء ولا ملك ولا سلطة فيسألهم الله ويقررهم ، لمن الملك اليوم ؟ أى لمن الملك الحقيقى ؟ لقد انكشفت أمامكم الأمور وتجلت الحقائق أنكم لا تملكون شيئا ، وإنما الملك الحق الكامل لله الواحد القهار ، ولست أدرى ماعلاقة ذلك بجعل السلطة والحكم السياسى أصلا للإلوهية ، هل يختلف أحد أن الله هو الملك الحق في الدنيا والآخرة ؟ لا يختلف أحد مع الأستاذ على ذلك ، لكن لاعلاقة لهذا الكلام بجعل السلطة والحكم والحاكمية السياسية جوهرا للإلوهية وأصلها والقول بأنهما لايختلفان لافى المعنى ولافى الروح ، لأنهما في الحقيقة اللغوية والشرعية والمنطقية يختلفان كما بينا .

- وبعد هذا العرض يتبين لنا الخطأ الثالث الذى وقع فيه الأستاذ المودودى حيث أحل المعنى الاقتضائى التبعى للإلوهية محل معناها الأصلى الأساسى، وبدأ يفرع عليه ويستخلص منه الأحكام ، ويؤسس النظريات ، فجعل الإلوهية تابعة للحاكمية ، وجعل الحاكمية هى هدف الإلوهية ، بل جعل الإلوهية معنى فرعيا والحاكمية أى السلطة السياسية والمدنية جعلها هى الأساس ، فجعل الإلوهية بذلك وسيلة وليست غاية ، وهذا خطأ كبير فاحش تتغير على أساسه كل حقائق الإسلام الحنيف . قال ابن رجب في تحقيق كلمة الإخلاص : «وتحقيق هذا المعنى وإيضاحه أن قول العبد : لا إله إلا الله يقتضي أن لا إله له غير الله والإله هو الذي يطاع فلا يعصي هيبة له إجلالاً، ومحبة وخوفاً ورجاء وتوكلا عليه وسؤالاً منه ودعاء له ولا يصلح ذلك كله إلا الله عزوجل».

- وقال الدكتور «صالح الفوزان فى كتابه معنى « لا إله إلا إله ومقتضاها فى الفرد والمجتمع » : فالحاكمية جزء من معنى لا إله إلا الله ، وليست هي معناها الحقيقي المطلوب فلا يكفي الحكم بالشريعة في الحقوق والحدود والخصومات مع وجود الشرك في العبادة . وبذلك ننتهى من ملاحظاتنا على مفهوم الإله الذى نقلته أنت أيها الأمير عن المودودى والقطبين ، ليتبين لنا أن الأمور سارت عندهم مقلوبة ومعكوسة مع منهج القرآن وحقائق الإسلام ، وان أحسنوا العرض ، وأتقنوا السرد كا فعلته أيها الأمير، فماذا عندك لتقوله عن كلمة الرب وحقيقة الربوبية كما سبق ووعدت بالكلام عنهما ؟